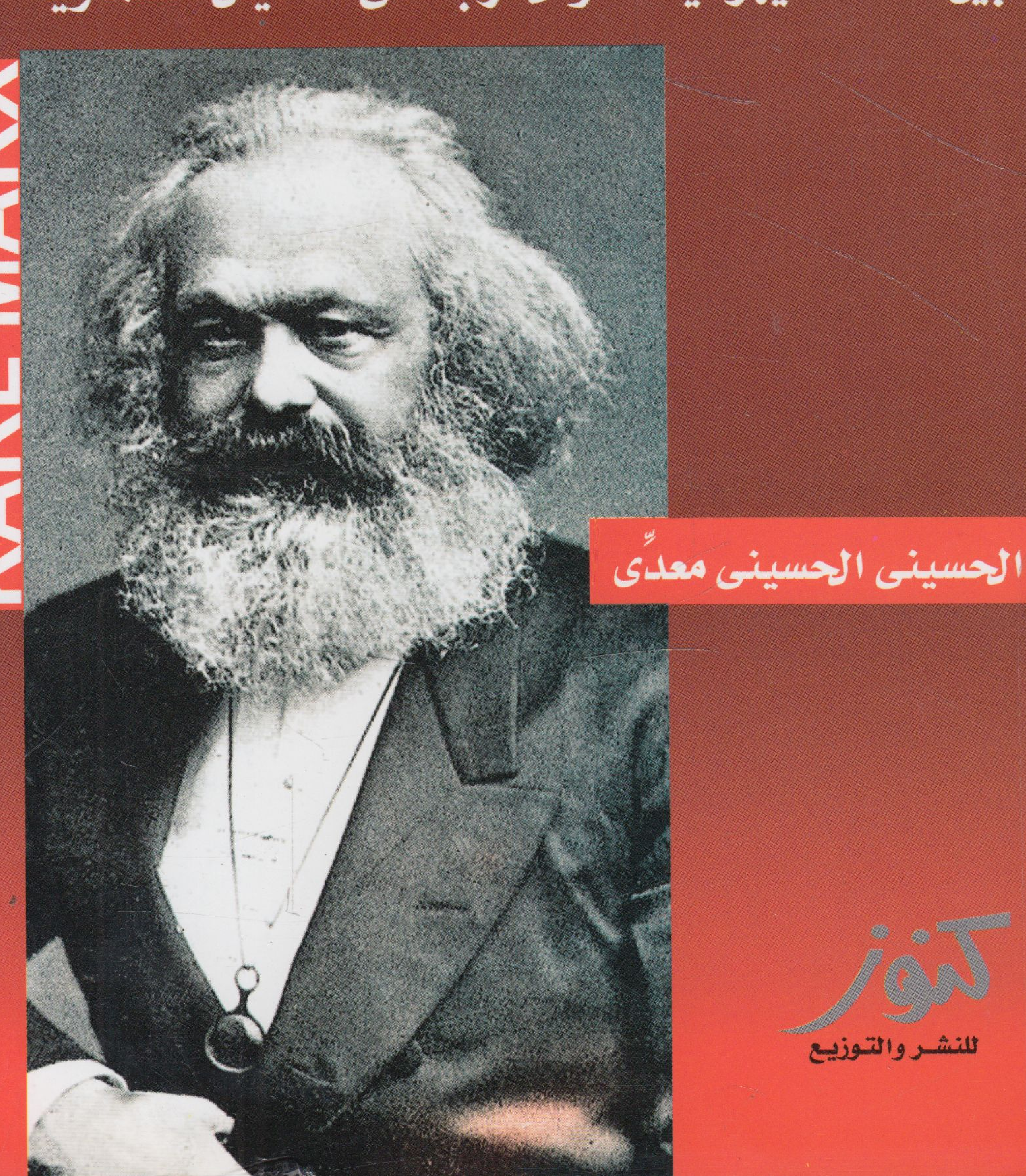
كارل ماركس

وأكذوبة الدين أفيون الشعوب

بين عقدة اليهودية .. والحرب على الأديان السماوية

KARL MARX



الحسينى الحسينى معدِّى

كنوز
للنشر والتوزيع

كارل ماركس

كارل ماركس

المؤلف
د/ الحسينى الحسينى معدى

الإشراف العام
ياسر رمضان

الناشر
كنوز
للنشر والتوزيع
37 ش قصر النيل - القاهرة تليفون: 0127717795

التنفيذ الفنى

النور للتجهيزات

٠١٠٢٦٥٧٠٨٣

رقم الإيداع: ١٣٢٣٠/ ٢٠٠٩

الترقيم الدولى: 977-5307-73-x

كارل ماركس

تأليف

د/ الحسينى الحسينى معدّى

كنوز

للنشر والتوزيع

مقدمة

كارل ماركس هو مؤسس «الاشتراكية العلمية» ولد فى مدينة ترير سنة ١٨١٨م، بألمانيا أبوه محام. وفى السابعة عشرة من عمره دخل جامعة بون يوم الكريسمان وانتقل بعد ذلك إلى جامعة برلين. ثم حصل على دكتوراه فى الفلسفة من جامعة فيينا.

ثم اشتغل بالصحافة وعمل رئيساً لتحرير «صحيفة الراين» فى مدينة كولونيا. وبسرعة أوقعته أفكاره السياسية فى مشاكل كثيرة. ولذلك انتقل إلى باريس وهناك التقى صديق عمره فريدريش إنجلز. وطرد من فرنسا فانتقل إلى بلجيكا. وفى بلجيكا سنة ١٨٤٧ أصدر أول مؤلفاته «إفلاس الفلسفة» وفى السنة التالية أصدر هو وفريدريش إنجلز «البيان الشيوعى» ثم انتقل إلى كولونيا وطرد منها فسافر إلى لندن حيث عاش فيها حتى نهاية حياته. وأمضى ماركس معظم الوقت يدرس ويكتب وكان صديقه إنجلز هو الذى يعوله مادياً. وفى سنة ١٨٦٧ أصدر كارل ماركس الجزء الأول من كتابه الشهير «رأس المال» وصدر الجزءان الأخيران بعد وفاته.

ولاشك أن مؤلفات كارل ماركس هى التى وضعت المعالم الأساسية للشيوعية.

إن جانباً كبيراً من قيمة كارل ماركس يعتمد على رأيه الخاص فى الشيوعية، ومن المؤكد أنها أحدثت أثراً بالغاً فى الفكر الإنسانى وفى تغيير مسار التاريخ والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية. وبعد مائة سنة تقريباً من وفاة كارل ماركس فإن عدداً من المؤمنين بها يزيد على ألف مليون نسمة. وهذا أكبر عدد حصل عليه أى مذهب سياسى فى كل العصور. ولكن أحداً لا يستطيع أن يقطع بأن هذا المذهب الذى بدأت تدب فيه الخلافات العنيفة والتمزقات

سوف يبقى طويلاً.. وقد حدث أن اعتقد الناس أن المانوية مذهب سوف يعيش طويلاً ولكن ذلك لم يحدث!

وفى سنة ١٩٠٠ أعلنوا أن الديمقراطية البرلمانية هى الصورة المثالية للعلاقات بين الحاكم والمحكوم. ولكن سرعان ما تغيرت هذه الصورة وظهرت أشكال وعلاقات شعبية أخرى متنوعة!

وحتى عندما نعترف بخطورة الشيوعية فى العالم. فإننا يجب أن نتساءل عن أهمية كارل ماركس نفسه داخل هذا المذهب. إن الاتحاد السوفيتى طور الشيوعية بما يجعلها تختلف تماماً عن الصورة المثالية العتيقة التى كتبها كارل ماركس بل إنها تبعد كثيراً عن الإطارات والقواعد التى وضعها ماركس. فلا أثر لما كان يسميه كارل ماركس: المادية الجدلية، ولا فائض القيمة.. ويمكن أن نقول إن الشيوعية السوفيتية تدين بكثير من الفشل لستالين ولينين أكثر مما تدين لكارل ماركس. كما أن الكثير من تعاليم ماركس سبقه إليها فلاسفة أوروبيون كثيرون. ولكن أهمية فلسفة كارل ماركس ظهرت فى أنه ربطها ربطاً حديدياً، وراح ينقب فى التاريخ القديم والحديث عما يدلل به على صحة نظريته فى الماضى، وفى المستقبل أيضاً.

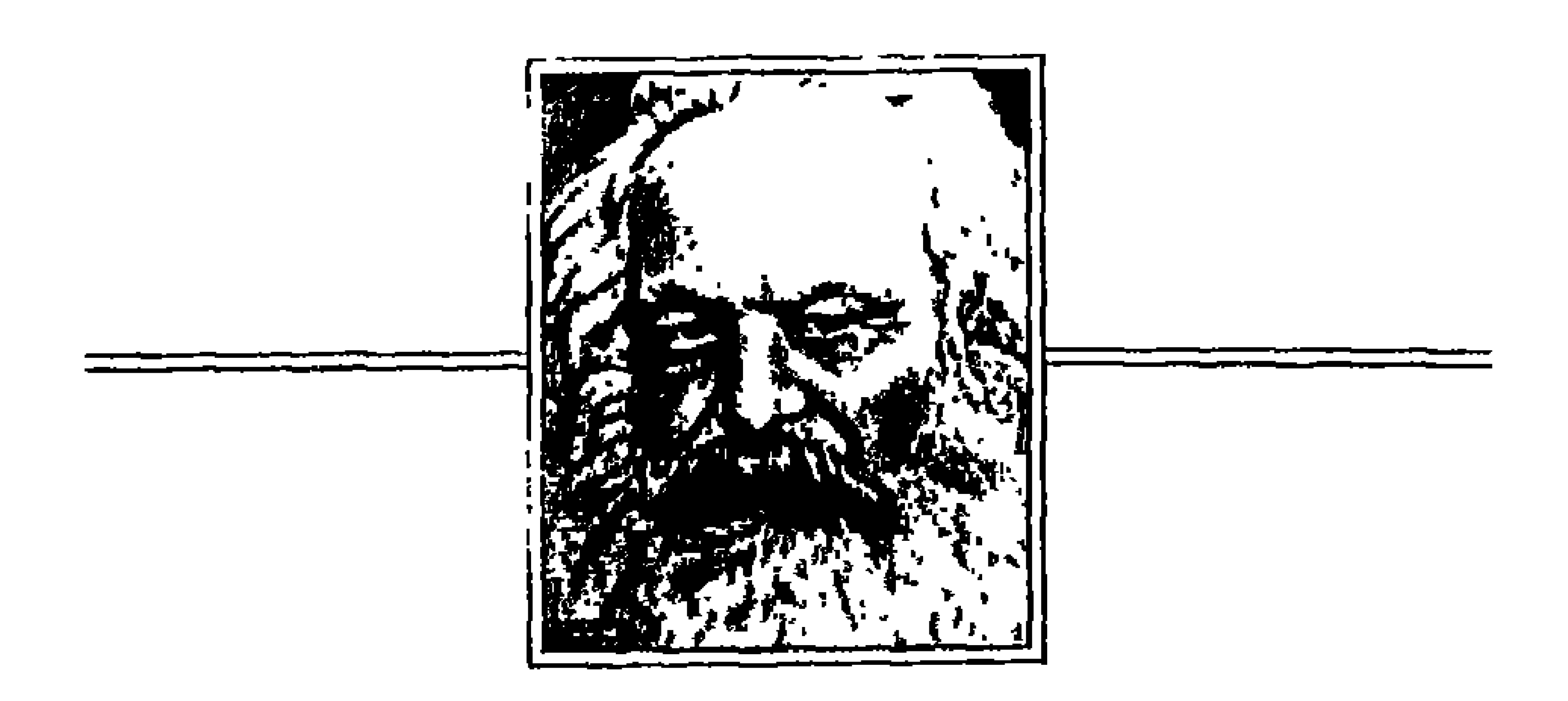
وقد أثبت التاريخ بعد وفاته خطأ كثير مما استنتجه.

ولكن زعماء الشيوعية أعلنوا جميعاً أنهم قرءوا ماركس وساروا وراءه وأضافوا إليه.. أعلن ذلك لينين وماوتسى تونج.

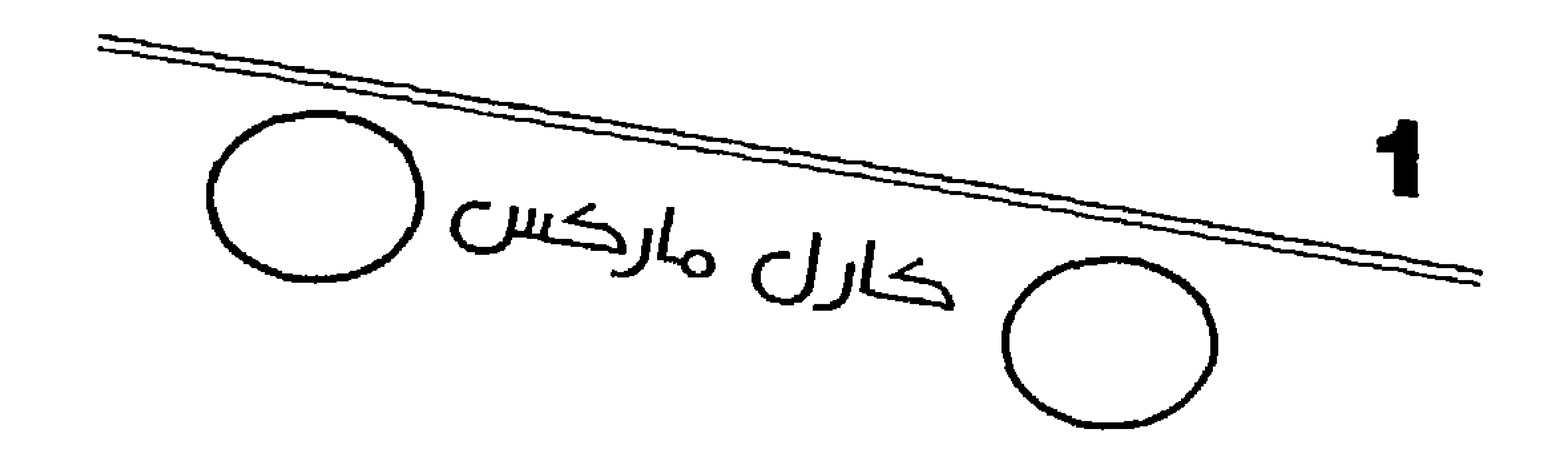
ولاشك أن فريدريش إنجلز شارك فى تطويع أفكار كارل ماركس خصوصاً كتاب «رأس المال»، صحيح أن إنجلز كانت له كتب خاصة به، لكن من المؤكد أن كارل ماركس هو الأبرز وهو الأشهر. ولكن ليس من العدل استبعاد إنجلز عند الحديث عن كارل ماركس وأثره فى الفكر السياسى العالمى. صحيح أن الكثير من تنبؤات ماركس جاءت خاطئة. فهو تنبأ بأن الطبقة العاملة فى المجتمعات الصناعية الرأسمالية سوف تزداد فقراً. فقد تأكد أن هذا خطأ. وتنبأ أيضاً

بأن الطبقة المتوسطة سوف تزول وتنهار فى أحضان الطبقة العاملة إلى الأبد ولم يحدث ذلك. وتنبأ أيضاً أن استخدام الآلة الحديثة سوف يؤدى إلى إفلاس أصحاب رؤوس الأموال والعكس هو الصحيح تماماً! وأهمية الفلاسفة لا تقاس بما وقعوا فيه من أخطاء. ولكن بما تركوه من أثر فى الناس. فنقلوهم من مجرد التفكير إلى العمل. وهنا يصبح كارل ماركس من أشهر الفلاسفة.

د. الحسيني الحسيني معدي



روسيا القيصرية



لم يكن للروس أو -المسكوف- شأن يذكر فى التاريخ حتى أوائل القرن الثامن عشر، فقد ظلوا خلال العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة قوما خاملين فى ميدان السياسة والحضارة، رغم كثر عددهم، واتساع رقعة بلادهم، وقد كانت بلادهم فى طريق التتار الذين كانوا يغيرون من أواسط آسيا على أوروبا، فأثرت تلك الغارات المتتابعة فى حياتهم العامة، وأعاقتهم عن مجاراة الشعوب الجرمانية- فى وسط أوروبا وشمالها- التى سارت بخطوات واسعة نحو الحضارة.

وقبل أن يقوم القائد المغولى جنكيز خان بغزواته، كانت روسيا منقسمة إلى إمارات عدة، بقيت يشن بعضها على بعض الغارات نحو قرن من الزمان، ثم دهمهم جنكيز خان فى طريقه لغزو القبائل التركية التى كانت تسكن غربى بحر قزوين، فاخترق جورجيا، واجتاز جبال القوقاز حتى وصل إلى سهول «ستبس» فى جنوب روسيا ١٢٢٤م على أن المغول قرروا الجلاء عنها فجأة، ثم عادوا إليها بعد ثلاثة عشر عاما، وكانوا إذ ذاك بقيادة «باتو» حفيد جنكيز خان، الذى دمر بجيوشه كل ما اعترض طريقه، وأسس له عاصمة جديدة على نهر الفلجا تسمى «سراى»، وظل المغول يحكمون روسيا أكثر من قرنين، عندما قام أمراء «موسكو» بتكوين مملكة عظيمة موحدة مقرها موسكو.

عند ذلك بدأ عهد جديد بتولى إيفان الثالث حكم روسيا «١٤٦٢- ١٥٠٥»، وهو الذى استطاع توحيد معظم الإمارات الروسية، وبدأ يحاول الخروج بروسيا من عزلتها والاتصال بالأمم الغربية، وشرع فى ايجاد العلاقات الودية والسياسية مع كثير من إمارات أوروبا وممالكها، وعلى الأخص الولايات الإيطالية، كفلورنسا وروما ونابلى، وتزوج من أسرة الامبراطور قسطنطين، آخر أباطرة القسطنطينية!

وكان إيفان أول من غرس الأوتوقراطية فى روسيا، إذ كان يميل بطبعه إلى الحكم الاستبدادى، معتقدا أن الناس عبيد الحاكم، وأنه ظل الله فى أرضه، ينوب عنه فى حكم عباده، فكان بذلك أول من بذر روح الطغيان التى ظلت

روسيا ترزح تحت أعبائه عدة قرون.

وجاء بعده خلفاء كان الاستبداد دينهم والطغيان حليفهم، فحفيده إيفان الرابع «١٥٣٣- ١٥٨٤» لقبه الناس بـ Evan the terrible «إيفان الرابع»، لكثرة الفظائع التى ارتكبها فى أواخر عهده، وقد تولى الملك طفلا، تشرف عليه أمه كوصية على العرش، فلما ماتت بعد خمس سنوات، آلت الوصاية إلى «شوسكى» أحد الأشراف، ولم يكد إيفان يبلغ الثالثة عشرة من عمره حتى أمر أمرا فجائيا بالقبض على شوسكى والقائه حيا للكلاب تأكله، وكان القصد من ذلك أن يلقى الرعب فى قلوب الأشراف حتى لا يجرؤ أحدهم على مشاركته فى السلطان.

وكان إيفان أول من تلقب بلقب «قيصر» تشبها بقياصرة الدولة الرومانية الشرقية، وفى السنة التى تم فيها تتويجه قيصرا- أى عام ١٥٤٧- تزوج من بيت «رومانوف» الذى أصبح الحكم القيصرى فى سلالته من بعد، وقد مات إيفان وترك ولدا ضعيفا، هو «تيودور» الذى انقضت بموته أسرته، وأعقبت وفاته فترة من الفوضى والتنازع على العرش، انتهت بنجاح أحد أمراء بيت «رومانوف» سنة ١٦١٣ فى تولى العرش.

■ ■ ■

وفى فترة الاضطراب التى تلت وفاة إيفان الرابع، عمت الفوضى، وازداد اضطهاد الفلاحين، مما حملهم على الفرار من أراضيهم إلى الغابات أو إلى سيبيريا، وكان الموقف دقيقا عندما تولى العرش ميشيل رومانوف «١٦١٣- ١٦٤٥» مؤسس أسرة رومانوف، وهى الأسرة التى ظلت تحكم روسيا حتى حدث الانقلاب الشيوعى سنة ١٩١٧.

اعتلى ميشيل العرش فى أعقاب الفوضى التى أخلت الأرض من فلاحيها وتركت الأشراف حيارى لا يجدون الأيدى العاملة التى تكدح فى الأرض وتخرج منها ذهبا لا ينتفع منه سوى هؤلاء الأشراف الإقطاعيين، فجأروا بالشكوى من

حالة الفقر والبؤس التى تهددهم، وانحصرت مطالبهم فى ايجاد طريقة لاسترجاع هؤلاء البؤساء الهاربين.

لبت الحكومة نداء الأشراف، ووضعت التشريعات اللازمة لإرجاع الفلاحين إلى الأرض، وإلا استهدفوا للسجن أو الإعدام، ونشط البوليس لجمع الفلاحين وتصديرهم إلى الأراضى الزراعية، وصدر مرسوم قيصرى فى عام ١٦٤٨، كان فاتحة نظام رقيق الأرض، إذ كان من نتيجته تسليم الفلاحين للأشراف باعتبارهم جزءا من أملاكهم، بحجة أن ذلك يعيد الاستقرار، ويسخر الجميع للمصلحة العامة، ويوفر الأيدى العاملة، فيزداد إنتاج البلاد، وتجاهلت الحكومة حقوق الفلاحين، لأنها أعطت رق الأرض صبغة قانونية، وطبقت عليهم بعض القوانين القديمة التى وضعت للعبيد، فأصبح الفلاحون تحت رحمة سادتهم ملاك الأراضى كأنهم قطيع من الأغنام، وصارت الأرض تباع بمن عليها من البشر، بل كان بعض الأشراف يستعمل فلاحيه كعملة يسدد بها دينه، أو يستبدل بهم متاعا يريد شراءه!

وقد عانى الفلاحون فى روسيا خلال القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر- من ألوان العذاب ما جعلهم يفضلون الفرار إلى غابات سيبيريا المجهولة، كما أدى الطغيان فى بعض الحالات إلى فرار بعضهم لتكوين عصابات لقطع الطرق ومهاجمة المزارع الكبيرة أثناء الليل، ولكن الغالبية العظمى من سكان روسيا ظلت ترزح تحت نيران الرق والاستعباد.

■ ■ ■

ولما تولى الحكم بطرس الأكبر «١٦٨٩- ١٧٢٥» أعظم ملوك آل رومانوف، كان من المنتظر أن تشمل إصلاحاته العديدة ونهضته الكبرى تحرير الفلاحين من رق الأرض، ومع أن بطرس الأكبر اتجه بنهضته إلى الأخذ بمبادئ الحضارة الحديثة، فقد أهمل ذلك الجانب الإنسانى فى سياسته، ذلك لأنه كان يعتقد أن نظام رقيق الأرض يصلح لإنهاض الإنتاج الزراعى، وأنه أصبح من العمد التى

يستند عليها بناء الدولة الاقتصادى وكيانها الاجتماعى، بل إن بطرس الأكبر زاد الفلاحين عنتا فوق عنت، فقد أباح للإقطاعيين استخدام الفلاحين فى منازلهم، وحرم عليهم مغادرة الأراضى بغير إذن كتابى من سادتهم، هذا إذا لم تبعد رحلة الفلاح عن أرض سيده أكثر من عشرين ميلاً، فإن زادت على ذلك كان عليه يخطر الحكومة، فإن لم يفعل عد فى نظر القانون هاريا، ويحاكم بتلك التهمة الخطيرة.

ويلاحظ هنا التشابه الكبير بين هذه القوانين القيصرية، والتشريعات العمالية فى روسيا الشيوعية، كما سنصفها بعد، وهو تشابه يلفت النظر، ويحمل على اليقين بأن معاملة الزراع الروس فى العهدين القيصرى والشيوعى مستمد من فلسفة واحدة!

■ ■ ■

وقد نجح بطرس الأكبر فى جعل سلطان القيصر مطلقا لا راد لحكمه ولا معقب على مشيئته، حتى الكنيسة لم تفلت من قبضته، ففى سنة ١٧٠٠ توفى البطريرك، وسرعان ما ألغى بطرس منصبه ووضع نفسه على رأس الكنيسة، ومنذ ذلك الوقت أصبح رجال الدين فى خدمة القيصر، وأصبحت الكنيسة أكبر أداة لتأييد الحكم الاوتوقراطى فى روسيا.

وقد حكم بعد بطرس الأكبر قياصرة ضعاف، عمت فى عهدهم الفوضى، وكثرت حوادث فرار الفلاحين من الأرض، ولم تجد الحكومات المتعاقبة بدا من الاعتماد على الأشراف الإقطاعيين، فمكنوهم من رقاب فلاحيهم، وأصبح للسيد منذ عام ١٧٦٥ حق عقاب الفلاحين كما يحلو له.

وكان الأشراف نوعين: أشراف الدم، وهم أمراء المقاطعات، وأشراف العمل، وهم كبار الموظفين ووجوه الدولة الذين اكتسبوا ألقاب الشرف على حسب نظام خاص وضعه بطرس الأكبر.

وقد احتكر الأشراف مع القيصر والأسرة المالكة تسعة أعشار الأرض

الزراعية فى روسيا، وكاونوا يتمتعون بامتيازات تشبه امتيازات الأشراف فى فرنسا قبل الثورة الفرنسية، كاحتكار الرتب السامية فى الجيش، ووظائف الحكومة الكبرى، والإعفاء من الضرائب، وحق تسخير رقيق الأرض فى الأرض، إلى غير ذلك من الامتيازات التى جعلت أغلبية الشعب إلى جانبهم عبيدا مسخرين.

وبقى نظام الحكم فى روسيا أوتوقراطيا، فالقيصر ظل الله فى الدولة، وموظفوه الطغاة ظل القيصر فى المقاطعات والأرياف.

ورضى الشعب قرونا طويلة بما قسم له، حتى إذا استهل القرن التاسع عشر، ظهرت فى روسيا طبقة من المفكرين كانوا على اتصال دائما بما يجد فى أوروبا- وعلى الأخص فرنسا- من أفكار تقدمية جديدة، فقد قرءوا هجوم فولتير على النظام الفرنسى القائم حينذاك، واطلعوا على آراء مونتسكييه فى الحرية، وآراء جان جاك روسو فى حقوق الإسان وتحطيم قيوده.

وقد كان القرن التاسع عشر مليئا بالأفكار الجديدة، والنظريات السياسية المستحدثة، والانقلابات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وكانت روسيا فى الواقع أحق الدول بأن تنال نصيبها من ثمرة تلك النظريات الجديدة، إلا أن حكومتها الأوتوقراطية أغلقت أبوابها فى وجه التجديد أو الإصلاح، ولم يسمح نظامها بإجراء أى تعديل إلا فى أضيق الحدود، فقد حاول بعض القياصرة القيام ببعض مشروعات الإصلاح، ولكنها كلها كانت جزئية لا تفى بالغرض المنشود، ولو وازنا بين النظام الاوتوقراطى القيصرى فى روسيا، ونظام الحكم المطلق فى بعض الدول الأوروبية، لوجدنا الفارق يكاد ينحصر فى أن ملوك الغرب كانوا- برغم تمتعهم بالسلطة المطلقة- يعترفون بسلطات القانون، أما فى روسيا فلم يكن القيصر يعترف بوجود القانون، ويتمثل ذلك جلياً فى القيصر بول الأول «١٧٩٦- ١٨٠١» فقد كان عندما تذكر أمامه كلمه القانون، يشير إلى صدره صائحا «هنا القانون»!

وبينما كانت شعوب أوروبا فى القرن التاسع عشر تجاهد فى سبيل حريتها وتخليص شعوبها من الحكم المطلق، كان قياصرة الروس يتشبثون بنظمهم القديمة، ويعملون على كبت حركات الإصلاح.

يضاف إلى ذلك أن السلطة المكملة للاوتوقراطية تكره التجديد وتحارب الإصلاح، لأن المبادئ الحرة الجديدة قامت لتحرم هؤلاء الإقطاعيين من الإثراء والتنعم على حساب الشعب، لذلك قاموا فى دورهم بالمعاونة على التجسس على الجماعات التى تطالب بالإصلاح وتنادى بالدستور وتهتف بالاشتراكية.

وبهذا تسربت الأفكار الاشتراكية الماركسية إلى روسيا، فوجدت أرضا خصبة متعطشة لمثل تلك المبادئ، وظهر أول كاتب روسى اشتراكى هو «باكونين» الذى كان يعتقد أن الثورة وحدها هى السبيل إلى تحقيق مبادئ الفيلسوف الاشتراكى الألمانى كارل ماركس.

■ ■ ■

اختار كارل ماركس لنفسه أن يشترك فى ثورات عام ١٨٤٨، فأصبح من أنصار جماعة ألمانيا الفتاة، ثم سافر إلى باريس، حيث اتصل بالاشتراكيين الفرنسيين، وقابل هناك الفيلسوف الألمانى فردريك إنجلز «١٨٢٠-١٨٨٥» Engles الذى كان قد أمضى فى إنجلترا بعض الوقت متصلا بالاشتراكيين الإنجليز.

وفى سنة ١٨٤٥ طرد ماركس من باريس، فذهب إلى بروكسل ويصحبته زميله وصديقه إنجلز، وهناك أخذ يواصل نشاطه.

وقد طلب إليه فى ذلك الحين أن يضع لائحة للجمعية الشيوعية الألمانية التى اتخذت باريس مركزا لنشاطها، فأصدر أول لائحة شيوعية، وهى لائحة على أعظم جانب من الخطورة، تقدم فيها بفلسفة جديدة للتاريخ، وبرنامج جديد للإصلاح الثورى، وقد تبين أنه تأثر فى قراءته بفلسفة «هيجل» التى تفسر التاريخ فى قاعدة تضع الماضى والحاضر والمستقبل فى ترتيب منطقى

محتوم، فتقول تلك الفلسفة: إن الشيوعية البدائية بعد خلق الإنسان قد قهرتها النظم الطاغية ثم حلت محلها، ثم جاء البرجوازية الرأسمالية فحلت محل النظم الاقطاعية، وقد جاء دور الطبقات العمالية الكادحة لقهر الطبقات البرجوازية وانتزاع ما فى أيديها، فالتاريخ بأكمله ما هو إلا كفاح بين الطبقات، وديكتاتورية الرأسماليين لابد أن تخلفها ديكتاتورية العمال، ثم يخلف ديكتاتورية العمال مجتمع عديم الطبقات، لذلك كان كارل ماركس يدعو العمال من جميع الأجناس فى العالم إلى الاتحاد ليكسبوا حرب الطبقات ضد الرأسماليين.

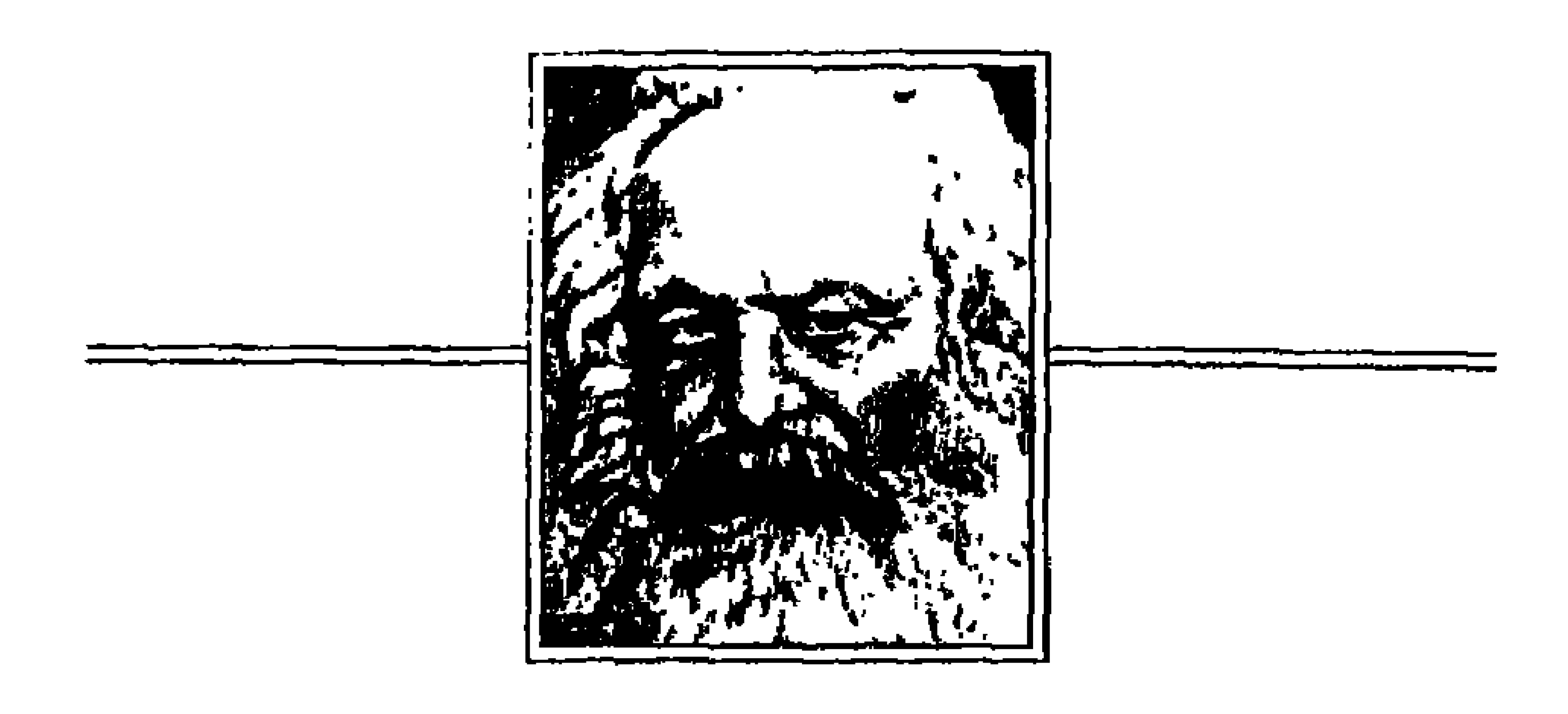
وهكذا كان كارل ماركس فى برنامجه الذى وضعه للطبقة العمالية التى أطلق عليها الكلمة الرومانية القديمة «البرولتاريات» منكرا لمبادئ القومية والوطنية، إذ يجمع العمال كلهم من جميع الأجناس فى قومية نظرية مشتركة ضد الرأسماليين من جميع الأجناس، وهو فى الوقت نفسه يتهم الدين بأنه يساعد على الاستغلال، لأن الكنائس كانت دائما تحالف الرأسماليين. وقد تأثر عدد كبير من المثقفين الروس بهذه المبادئ.

وأصبحت حالة روسيا فى أواخر القرن التاسع تستدعى الإصلاح ومحاولة تطبيق بعض النظم الاشتراكية المعتدلة، حتى لا يحدث الانفجار الذى يهدد كيان الدولة، ولكن القياصرة والنبلاء والإقطاعيين لم يحاولوا من جانبهم تحقيق العدالة الاجتماعية فى بلادهم على أى صورة من الصور. ومع أن القيصر إسكندر الثانى قد قتل بقنبلة ألقيت على عربته فى أحد شوارع بطرسبرج سنة ١٨٨١، فإن ابنه القيصر إسكندر الثالث «١٨٨١- ١٨٩٤» لم يعتبر بمقتل أبيه، بل ظل سادرا فى حكمه الاستبدادى، وزاد عليه مراقبة الصحف والمطبوعات، ومنع دخول الكتب الأوروبية، وطرد ومنع أولاد العمال والفلاحين منعا باتا من متابعة الدراستين الثانوية والعالية، وعمد إلى تقوية نفوذ الأشراف والإقطاعيين على حساب العمال والفلاحين والطبقة المتعلمة، وتبعه نيقولا الثانى، ذلك القيصر الذى قامت الثورة الشيوعية فى عهده، فكان

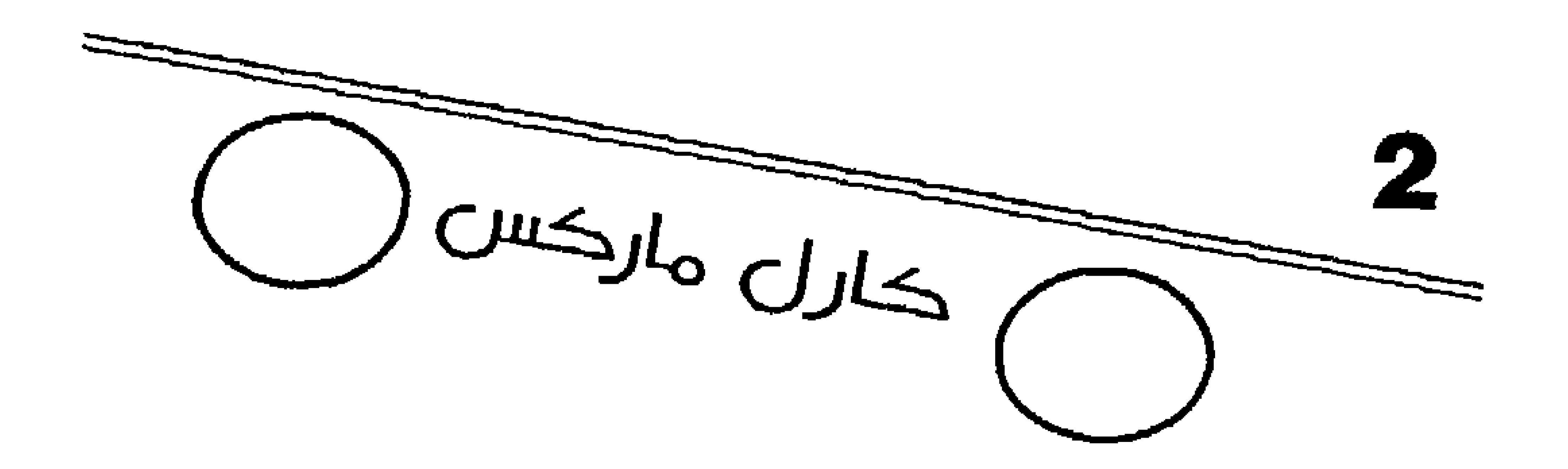
كالملك لويس السادس عشر، مترددا بين الإصلاح والرجعية، وكان ضعيف العزيمة، سقيم الوجدان، حتى انتهى به الأمر إلى أنه وضع ثقته فى راهب أفاك، يتظاهر بالتشدد فى الدين والدين منه براء، ولم يحاول القيصر أن يتفهم معنى العدالة الاجتماعية، وانتهى الأمر به إلى خشبة الإعدام، ووقعت روسيا فريسة فى براثن الشيوعية.

ونشبت الثورة الشيوعية الحمراء فى روسيا، سنة ١٩١٧، خلال الحرب العالمية الأولى، ولم تزل ناشبة حتى اليوم، وانتهت منذ ذلك التاريخ ديكتاتورية القياصرة، لتخلفها فى الحكم ديكتاتورية من نوع آخر، يصفونها بأنها ديكتاتورية العمال، ولكنها فى حقيقتها ليست ديكتاتورية عمال، بل لعل العمال هم بعض ضحاياها، أو أكثر ضحاياها، وإنما هى ديكتاتورية طبقة ممتازة، فرضت نفسها باسم العمال على الجهاز الحاكم، وملكت السلطات كلها فى يديها، فاجتمع لها من أسباب البطش والقوة أكثر مما كان فى أيدى القياصرة، ليستغلوه على وجه أشنع وأبشع مما كان فى أيدى القياصرة، وذلك هو النظام الشيوعى فى روسيا.

■ ■ ■



ميلاده ونشأته



إنه مما لا شك فيه أن الماركسية التى تنسب إى كارل ماركس وصديقه فريدريك إنجلز، تعد أهم وأقوى المذاهب الاشتراكية وأكثرها تأثيرا فى الحياة العملية ويذهب بعض الماركسيين إلى حد القول بأن الماركسية هى التعبير العلمى الوحيد عن الاشتراكية كلها وإن كافة ماعداها من المذاهب إما خيالى وإما منحرف عن الاشتراكية الحقيقية التى تتمثل فقط فى الماركسية وأنه مما يدعو للعجب إنه لم ينل فكراً أو مذهباً على مر التاريخ بقدر ما ناله فكر ماركس ومذهبه من تحليل وتعقيب ونقد ودراسة وهذا يوضح لنا مدى أهمية هذا المذهب وأثره على عقول وأفكار العالم.

ميلاده ونشأته

ولد كارل ماركس فى الخامس من مايو سنة ١٨١٨ بمدينة ترييز بألمانيا عن أب محام يهودى سرعان ما انقلب إلى الديانة المسيحية «المذهب البروتستانتى» بل إن أجداده من الجانبين كانوا ولأجيال متعددة من الحاخامات ولقد كان السبب فى تحول والده إلى المسيحية هو تهدد مركزه بسبب القوانين المعادية لليهود بعد سقوط نابليون وضم أراضى الراين.

وبعد أن أتم ماركس دراسته الثانوية التحق بجامعة برلين فدرس الحقوق بصفة عامة وتخصص فى دراسة الفلسفة ودفعه استعداده الذهنى الرائع إلى الانكباب على دراسة التاريخ فى نفس الحين.

وفى سنة ١٨٤١ استطاع ماركس أن ينجز دراسته بتقديم مناقشة حول فلسفة ابيقور ولقد كان فى ذلك الحين تتسلط فلسفة الفيلسوف هيجل على القانون بصفة خاصة وعلى الفكر الألمانى بصفة عامة.

ولقد فشلت مساعيه فى أن يلتحق بالجامعة البروسية للتدريس بها. فقد كانت محرمة على أمثاله من أصحاب الفكر الحر.

وفى سنة ١٨٤٢ انتقل ماركس إى مدينة كولونيا وعمل بالصحافة المتطرفة. وازدادت كتابات ماركس الثورية واتضحت، فعمدت الحكومة إلى فرض رقابتها عليها ثم سرعان ما قررت إغلاقها.

أدرك ماركس من خلال نشاطه فى الصحافة أن معلوماته فى الاقتصاد السياسى غير كافية. فاندفع ينهل من مصادرها.

وفى سنة ١٨٤٣ تزوج من كريز صديقة طفولته وقد كانت تنحدر من عائلة نبيلة، وفى نفس العام انتقل إلى باريس ليصدر مجلة مع ارنولد روغه، وكانت تسمى الحولية الألمانية الفرنسية ولم يصدر منها سوى العدد الأول ثم اضطر إلى التوقف لصعوبة التوزيعج السرية والخلافات من روغة فى المبادئ.

فى عام ١٨٤٤ حضر فريدريك إنجلز إلى باريس لقضاء بضعة أيام- وكان فريدريك إنجلز ينتمى إلى أسرة من كبار الغزاليين بعثه أبوه إلى إنجلترا للتدريب على الأعمال، وكان إنجلز هيجلى يسارى استرعى نظره حال الوسط الصناعى فى إنجلترا الذى أوحى إيه بكتابه الذى ظهر سنة ١٧٤٦ عن «حالة الطبقة العاملة فى إنجلترا ولقد أصبح فريدريك إنجلز الصديق الحميم لماركس.. وفى يناير سنة ١٨٤٥ طردته الحكومة الفرنسية بناء على طلب سفير بروسيا، فلجأ إلى بروكسل.

ولقد انتمى ماركس وإنجلز إلى جمعية سرية تدعى «عصبة الشيوعيين» وبعد ذلك دعى ماركس وإنجلز إلى مؤتمر الحزب الشيوعى الثانى الذى انعقد فى لندن وبناء على تكليف من المؤتمر قاما بوضع «بيان الحزب الشيوعى».

وعقب ذلك عاد ماركس مرة أخرى إلى ألمانيا ليصدر جريدة جديدة وقد كتب فيها عن جميع الحركات العمالية والديمقراطية فى جميع بلدان العالم. ثم أحيل ماركس إلى القضاء سنة ١٨٤٩ ثم نفى من ألمانيا، فانتقل ثانية إلى باريس، ثم طرد إلى لندن فعاش فيها حتى آخر عمره، ولد كانت ظروف ماركس العائلية فى لندن شديدة الفقر. وفى مرحلة انتعاش النشاط فى الحركات الديمقراطية، اندفع ماركس من جديد إلى النشاط العلمى سنة ١٨٦٢، حيث تأسس فى لندن أول جمعية مشهرة «الجمعية العمالية» وكان ماركس قد وضع أسسها وأرسى رسالتها واستطاع بعد جهاد مرير أن يعزز دعائم نضال الطبقة العاملة فى مختلف البلدان.

الأفكار التى تأثر بها ماركس

تأثر ماركس بالظروف فى إنجلترا- الدولة التى عاش فيها بعد نفيه من ألمانيا- حيث أدرك أن الأوضاع فيها فى ظل النظام الرأسمالى فى التصنيع تعتبر أكثر تدنيا مما ساد فى ألمانيا مما جعله يعمم تحليله ليس فقط من واقع ألمانيا ولكن أيضا من الظروف السائدة فى وقته. وتعتبر أفكار ماركس أساساً لما يعرف بـ«الاشتراكية الثورية» التى درج على تسميتها بـ«الشيوعية» والتى تختلف عن غيرها من الاشتراكيات فى أنها اشتراكية علمية كما اطلق عليها ماركس على خلاف الاشتراكيات المثالية.

حيث ترتكز على فلسفة محددة [1]، كما أنها ثورية حيث تختلف عن الاشتراكات الديمقراطية التى تنبذ الثورة وتهدف الوصول إلى الاشتراكية أساساً لتحقيق أهدافها، وفى هذا المجال يؤكد ماركس رأيه قائلا: «إن المفكرين السياسيين طالما سعوا إلى التعرف على العالم ولكن الفكرة الأساسية هى تغييره وليس التعرف عليه [2].

والمتتبع منا لحياة ماركس يجد أن هناك ثلاثة تيارات أثرت على أفكاره:

١) الفلسفة الكلاسيكية الألمانية:

حيث تأثرة بمنهاج وفلسفة الفيلسوف الألمانى الشهير هيجل.

٢) الاشتراكية الفرنسية التى واكبت الثورة:

فلقد تأثر بأفكار العديد من المفكرين الاشتراكيين الفرنسيين من أمثال، بابيف وسان سيمون.

---

(١) الفكر السياسى من أفلاطون إلى محمد عبده د.حورية مجاهد، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٦.

(٢) المصدر السابق.

٣) الاقتصاد السياسى الكلاسيكى الإنجليزى:

فلقد تأثر تأثيراً واضحاً بالنظريات الاقتصادية السياسية الانجليزية خاصة أن العالم تحكمه قوانين اقتصادية محددة.

ولقد بدأ ماركس كتاباته الاشتراكية المحددة بالبيان الشيوعى «المانفيستو» وقد وضعه بالاشتراك مع صديقه إنجلز، ولقد نشر هذا البيان فى ثلاث وعشرين صفحة، تنطوى على أفكار كل من ماركس وإنجلز، مصاغة فى شكل مبادئ وخطط على قدر المستطاع بأسلوب يتميز بالحماسية والثورية والهجومية.

ولقد تضمن هذا البيان أربعة أجزاء:

١) البرجوازيون والكادحون.

٢) الكادحون والشيوعيون.

٣) الأدب الاشتراكى والشيوعى.

٤) موقف الشيوعيين من الأحزاب المعارضة.

ولقد افتتح ماركس هذا البيان بعبارته الشهيرة «إن تاريخ كل مجتمع لم يكن سوى تاريخ نضال بين الطبقات» ومعنى النضال بين الطبقات هو أن كل شعب يحتوى فئات مختلفة فى المعيشة والمستوى الثقافى وسائر المستويات الأخرى وأن هذا التباين هو ما يولد المسيطر والمسيطر عليه. ومن هنا تنبعث هوة تؤدى إلى الحرب الدائمة بين الطبقتين وأن هذه الحروب لا تنتهى دائماً إلا بثورة أو بانهيار الطبقتين.

ويسترسل ماركس فيقول «أما المجتمع البرجوازى الذى نشأ فى وجدان المجتمع الإقطاعى، فلم يقض على التنافس بين الطبقات. لكنه أقام طبقات جديدة وأوجد ظروفا جديدة للاضطهاد وأشكالا أخرى للنضال وما يميز المجتمع البرجوازى هو أنه قسم العالم إلى فئتين هما: البرجوازية والبروليتاريا».

ولقد تبع ذلك البيان، كتاب مهم هو مساهمة فى نقد الاقتصاد السياسى

وتبعه بكتابه الأسطورة «رأس المال» ذلك الكتاب هو الذى هز الفكر الاقتصادى والفلسفى والسياسى للعالم أجمع، فلقد استودع ماركس هذا الكتاب خلاصة نظريته الاقتصادية وحللها تحليلا دقيقا وأوضح الطرق للوصول إليها.

ولقد كتب فى مقدمة كتابه «رأس المال» أن الهدف النهائى لهذا الكتاب هو الكشف عن القانون الاقتصادى لحركة المجتمع الحديث أى الرأسمالى البرجوازى.

ولقد كتب ماركس عدة كتب أخرى منها:

«الأيديولوجية الألمانية»، «الصراعات الطبقية فى فرنسا»، «بؤس الفلسفة»، «حول المسألة اليهودية» مساهمة فى نقد فلسفة القانون عند هيجل»، «الاقتصاد السياسى والفلسفة»، «العائلة المقدسة»، «تاريخ المذاهب الاقتصادية».

فلسفته:

لم يكن ماركس مجرد مفكر سياسى. ولكنه كان داعية للثورة والتغيير بل سعى لترجمتها إلى واقع. وأفكار ماركس ألهمت أيديولوجيات الملايين من البشر فى جميع أنحاء العالم نظرا لمنطقيتها والطابع الإنسانى الغالب عليها ومناداتها بتحرير الإنسان من الاستغلال والاضطهاد. (١)

ولقد اعتقد «ماركس كما اعتقد هيجل- أن التاريخ هو المفتاح إلى فهم الإنسان وصفاته، ذلك لأن هناك نموذجا متميزاً وهدفا معقولا فى تطوير القدرات الإنسانية، وثمة أنماط بعينها من النشاط، سواء أكانت عقلية أم عملية لم تكن لتظهر إلا بعد أن نمت الملكات الملائمة لها نموا كافيا، وهذه بدورها شجعت على ظهور ملكات ومناشط جديدة لم تكن ممكنة أو متصورة فى مرحلة أشد تبكيراً».(٢)

---

(١) الفكر السياسى من أفلاطون إلى محمد عبده د.حورية مجاهد، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٦.

(٢) الموسوعة الفلسفية المختصرة، نقلها عن الانجليزية فؤاد كامل، جلال العشرى، عبدالرشيد صقر. راجعها وأشرف عليها د. زكى نجيب محمود، دار القلم، بيروت.

لقد قسم ماركس تاريخ البشرية إلى خمس مراحل رئيسية وذلك طبقا لعلاقات الإنتاج ودورها فى تاريخ البشرية.

١) مرحلة الشيوعية الأولى:

أو مرحلة المجتمع البدائى التى قامت على أساس الشيوع فى الملكية وفى استغلال الموارد الطبيعية، فلم يعرف الإنسان فى تلك المرحلة طعم الملكية الخاصة واعتمدت هذه المرحلة على وجود وفرة نسبية فى المواد وقلة الحاجات البشرية نسبيا وبازدياد أعداد الأفراد بدأت الموارد تندر نسبيا وبدأ الصراع من أجل الحصول على الموارد لتبدأ مرحلة جديدة.(١)

٢) مرحلة العبودية:

تميز المجتمع هنا- ويقصد به المجتمع الإغريقى الرومانى- بظهور الملكية الخاصة وبالتالى ظهور نظام الرق والعبيد كطبقة وظهور نظام الاستبداد كطبقة أخرى، أى تميزت هذه المرحلة بظهور الطبقات والملكية الخاصة وبدأ الصراع بين العبيد وأسيادهم لكى يظهر لنا نظام جديد ناتج عن هذا الصراع.(٢)

٣) مرحلة الإقطاع:

أو مرحلة القرون الوسطى، وتميزت هذه المرحلة أيضا بوجود الملكيات الخاصة وبوجود الطبقات، وأدوات الإنتاج الرئيسية فى هذه المرحلة هى نفسها فى مرحلة الإنتاج السابقة وهى الأرض الزراعية وبالتالى فإن الطبقات الموجودة فى ذلك المجتمع كانت طبقة النبلاء وأمراء الإقطاع وطبقة عبيد الأرض وبزيادة الأنشطة الاقتصادية فى المجتمع وتطورها مع بداية ظهور التكنولوجيا والمخترعات الحديثة تكونت لنا طبقة جديدة وهى طبقة البرجوازية التى بدأت ثورية- فى أول الأمر- ونشأ الصراع بين هذه الطبقة

(١) الفكر السياسى من أفلاطون إلى محمد عبده د.حورية مجاهد، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٦.

(٢) المصدر السابق.

الجديدة وبين طبقة النبلاء لينتج لنا نظام آخر ومرحلة جديدة.(١)

٤) مرحلة الرأسمالية:

أو مرحلة المجتمع الرأسمالي، وهى النظام الذى تولد عن انتصار الطبقة البرجوازية وتحطيم النظام الاقتصادى الإقطاعى، ولكن ماركس رأى أن هذا النظام الرأسمالى أيضا حمل فى طياته بذور فنائه حيث إنه أوجد طبقة ثانية تعارضت مصالحها مع مصالح الطبقة البرجوازية وهى طبقة العمال، وتتميز هذه المرحلة بوجود طبقتين وبتعدد النشاط الاقتصادى وتنوعه والتطور التكنولوجى فى وسائل الإنتاج.(٢)

٥) النظام الاشتراكى:

أو مجتمع المستقبل الاشتراكى. وهو النظام الذى سيرث النظام الرأسمالى، ويرى ماركس أنه أولى خطوات الشيوعية التى ينشد تحقيقها ويرى أن النظام الاشتراكى حتمى الحدوث وفقا للمادية التاريخية ويتميز هذا النظام بسيادة طبقة واحدة اطلق عليها اسم طبقة البروليتاريا حتى يتم التحول للشيوعية وتختفى الطبقية نهائيا.

وعليه فإن قمة الجدلية والتطور التاريخى هى قيام مجتمع شيوعى يختفى فيه الاغتراب والأساس فيه الاستغلال من خلال الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج.. وهو ما ميز أول مراحل تاريخ البشرية فى ظل الشيوعية الأولى فى المجتمع البدائى.(٣)

ولقد اقتبس ماركس عن هيجل فكرة الجدلية على أساس أن العلم قائم على التطور وفقا لعملية ديناميكية وليس استاتيكية جامدة، وأن هذه العملية تتكون فى شكل متناقضات والتوليف بينها.

---

(١) الفكر السياسى من أفلاطون إلى محمد عبده د.حورية مجاهد، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

ولذلك فالفلسفة الماركسية تتكون من ثلاثة أجزاء: فهى جدلية فى بحثها وطريقة اعتبارها وتعلقها بظواهر الطبيعة، ثم إنها مادية فى تفسيرها وتفهمها هذه الظواهر، وأخيراً فإنها مادية تاريخية بتطبيقها مبادئ الفلسفة الجدلية المادية على الحياة الاجتماعية بمختلف مظاهرها وعلى دراسة المجتمعات وتاريخها.(1)

ويقول ماركس عبارته المشهورة فى مقدمة نقد الاقتصاد السياسى المنشور عام ١٨٥٩م «لقد انتهت أبحاثى إلى أن العلاقات القانونية وأشكال الدولة لا يمكن أن تفهم بالنظر إليها فى حد ذاتها ولا من خلال تطور الفكر البشرى، وتطور التاريخ يبين لنا كيف أن قوى الإنتاج المادى كانت دائماً هى القوى الدافعة إلى تطور شكل المجتمعات، فقد كان أول تنظيم اجتماعى هو المجتمع الشيوعى البدائى الذى ظل باقيا عشرات الآلاف من السنين وفى هذا المجتمع تمكن الإسان من اختراع الآلات الحجرية والخشبية ثم اكتشف النار وارتقى بعد ذلك عن الصيد إلى الرعى والزراعة وتربية الماشية وظهور تقسيم العمل، وزاد الإنتاج ومن ثم انتقلت ملكية موارد الثروة والإنتاج إلى ملكية خاصة تركزت فى يد رؤساء القبائل، فتحول المجتمع بشكلة الشيوعى الأول إلى المجتمع العبودى، ثم تقدم الإنسان بعد ذلك فى استخدام الحديد والآلات والأنسجة وارتقت التجارة واتسعت، وتبع ذلك تغير جديد فى شكل المجتمع إذ ظهر المجتمع الإقطاعى ليلغى المجتمع العبودى وتحولت ملكية الأرض وما عليها من ثروة طبيعية وحيوانية وبشرية ملكا خاصا للسيد الإقطاعى يتصرف فيهم بالبيع والشراء لم تعد حياة الرقيق ملكا لهم.

ولكن التقدم الفنى والعلمى والثورة الصناعية انتهت بعد ذلك إلى نشأة النظام الرأسمالى الذى حلت فيه المصانع محل الصناعات اليدوية وحل البخار محل طاحونة الهواء فى النظام الإقطاعى وأصبحت علاقة الإنتاج فى ظل الرأسمالية الصناعية بين الرأسمالى يحسن إنتاجه ولكنه يزيد من استغلاله

---

(1) المذاهب الاشتراكية، د.أحمد جامع، دار المعارف مصر، ١٩٦٩، الطبعة الثانية.

للعامل الذى يقدم له هذا الإنتاج.

غير أن زيادة استغلال الطبقة العاملة ستنتهى إلى الثورة الاشتراكية التى تطيح بعلاقات الإنتاج الرأسمالى ليؤسس علاقات إنتاج اشتراكى يقوم على أساس تأميم موارد إنتاج من أراض زراعية ومصانع، وإكفاء حاجة الجميع عن طريق التقدم التكنولوجى سينتهى إلى المجتمع الشيوعى. (١)

ومن الناحية الواقعية تلم تطبق بأكملها وما طبق منها لم يطبق على النحو الذى رآه ماركس، فلم يتم انهيار النظام الرأسمالى كما تصور ولم يزد الفارق الطبقى بين البرجوازية والبروليتاريا حيث لم يزد العمال بؤسا وإنما اكتسبوا قوة بوسائل سلمية، فلم يتصور ماركس دور النقابات العمالية كجماعات ضغط قوية على الحكومات كما لم يتصور أن يصبح العمال أصحاب مصلحة فى استمرار النظام الرأسمالى نفسه وأن يصبح ركيزة المجتمع طبقة وسطى قوية.

ولقد عرف إنجلز «المادية التاريخية» التى تعتبر النقطة التى ترتكز عليها الفلسفة الماركسية كلها بأنها هى الإنتاج الاقتصادى وما لابد أن ينتج عنه من تنظيم اجتماعى بالنسبة لكل فترة من فترات التاريخ يكونان أساس التاريخ السياسى الفكرى لتلك الفترة.

ولقد طبق ماركس وإنجلز جدلية هيجل على الفلسفة المادية فقلبا الفلسفة الهيجلية عقبا على رأس فأصبحت تقف على قدميها، ذلك بأن الجدلية عند هيجل كانت إذ ترتبط بالمثالية تقف على رأسها.

وإذ طبق ماركس جدلية هيجل على فلسفة المادية أسس فلسفة جديدة هى «المادية الجدلية» والتى مؤداها أنه ليس من سبيل إلى تفهم كل ظاهرة طبيعية على حدة بأن الظواهر الطبيعية جمعاء متشابكة متعاندة، والطبيعة فى الحركة دائمة ارتقائية يتم فيها الارتقاء فى شكل حركة أمامية تصاعدية من البسيط إلى المركب ومن الأدنى إلى الأرقى بدافع الصراع بين المتناقضات وعن طريق

(١) فى فلسفة السياسة، د.أميرة حلمى مطر، دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٨٥.

الانتقال من التغيرات الكمية التدريجية إلى التغيرات النوعية الفجائية.

«والمادية التاريخية، هى تطبيق لتلك المادية الجدلية على التاريخ، أى على دراسة الحياة الاجتماعية عبر التاريخ.. إنها هى تطبيق لتلك الفلسفة الخاصة الناتجة عن قلب الفلسفة الهيجلية عقبا على رأس ولقد أوجزها ماركس فى مقدمة كتابه نقد الاقتصاد السياسى» على النحو الآتى:

«إن فى الإنتاج الاجتماعى لوسائل الوجود يعقد الأفراد فيما بينهم روابط معينة لا مناص منها مستقلة عن إرادتهم وهى روابط ترتبط بمرحلة معينة من مراحل تطور قواهم الإنتاجية. ومجموع روابط الإنتاج هذه تكون الكيان الاقتصادى للمجتمع. ذلك الكيان الذى ترتكز عليه النظم القانونية والسياسية والأفكار الاجتماعية فهو أساسها الحقيقى جميعا».(١)

وإذا أردنا الإنصاف نلحظ أن فلسفة ماركس وإنجلز المادية الجدلية التاريخية ليست إلا سبيل عندهما إلى الصراع بين الطبقات، فهما يقولان فى الإعلان الشيوعى إن تاريخ المجتمعات الحاضرة قاطبة هو تاريخ الصراع بين الطبقات.

«إن الحر والعبد الشريف ورجل العامة والبارون والتابع وبصفة عامة المضطهدين والمضطهدين، فى نضال مستمر فيما بينهم وفى صراع عنيف ينتهى فى كل مرة إما بقلب نظام المجتمع بأسره أو بتحطيم الطبقات المتناضلة جميعا.

وتجيب المادية الجدلية أن تاريخ المجتمع البشرى هو تاريخه الاقتصادى هو تاريخ القوى الإنتاجية وهو تاريخ الصراع من أجل ملكية أدوات الإنتاج.(٢)

ولقد اقتنع ماركس بأن العالم المادى هو العالم الحقيقى الوحيد، وأن المشاعر والإحساسات والأفكار ليست إلا انعكاساً للحقيقة. فالوجود الاجتماعى

(١) أصول علم السياسة، د.طه بدوى.

(٢) المصدر السابق.

هو الذى يحدد وعى الأفراد وليس النقيض.. حيث إن الوجود الاجتماعى يمثل البناء السفلى الأساسى لوعى الأفراد الذين يعدون البناء الأعلى ولقد رأى ماركس أن التطور فى العملية الإنتاجية ينتج عن التطور التكنولوجى والتنظيم الاقتصادى وحتما يؤدى إلى تغيرات فى عناصر الملكية والتنظيم الطبقى، وهو بهذا ينتج الأيديولوجيات والمعتقدات المختلفة والمتباينة التى عن طريقها تبرر الطبقات الاجتماعية مصالحها المتعارضة.

«تركت أفكار ماركس أثارا مهمة فى العالم أجمع، والسبب فى شهرتها أن الكثير من أفكاره- رغم أنها عولجت من قبل خاصة من جانب بابيف وسان سيمون وكذلك منهجه فى التحليل- ليس من ابتداعه، وإنما جاء من قبل أستاذه هيجل الذى عرف بإرساء ما يعرف بفلسفة التاريخ، ولكن الجديد فى أفكار ماركس أنه خاطب الشريحة العريضة فى المجتمع وهى الطبقة العاملة، كما تتميز أفكاره بالمنطقية وباصطباغها بالصبغة الإنسانية، ولكن رغم التسلسل المنطقى لأفكاره من الناحية النظرية إلا أنها من الناحية التطبيقية العملية لم تطبق وفقا لما جاء به ماركس ولكن طبقت بطريقة مختلفة.

فأفكار ماركس جاءت فى شكل تنبؤات لم يتحقق معظمها إلى حد كبير، وإن كانت قد تقلبت بشكلها الكلى من جانب المؤمنين بأفكاره كعقيدة مغلقة غير قابلة للنقاش والجدل.

■ ■ ■

الفلسفة المادية

أسس الماركسية

كثيراً ما خدع بعض الناس بسراب الشيوعية الكاذب، وبدعايتها المضللة، التى استهوت قلوب بعض الفقراء حيث وعدتهم بتوزيع أموال الأغنياء ومنتهم بالسعادة المنشودة: «يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً» (النساء: ١٢٠).

ولئن حق لبعض البائسين أن يتأثروا بهذه الدعاية البراقة إلا أنه لا يليق بالمتعقلين عامة أن يقدموا على اعتناق فكرة قبل التعرف إلى أبعادها، وإلى مدى صلاحيتها للحياة. كما لا يليق بالمسلمين خاصة- كأصحاب عقيدة عالجت شئون الحياة كافة- أن يأخذوا بأى فكرة قبل عرضها على تعاليم الإسلام، لئلا تتضارب مع إسلامهم الذى ارتضوه منهاجاً لحياتهم. لذا كان لابد من تسليط أضواء الإسلام على الماركسية من جميع جوانبها، ليكون المسلم على بينة من أمرها، ومعرفة من أغراضها ومراميها، فلا يؤخذ على حين غرة، ولا يندم على تسرعه بانتمائه لها.

- الأسس التى تقوم عليها الماركسية

الفلسفة المادية:

تقوم الفلسفة المادية على أساس أن الإنسان هو وحده مصدر المعرفة، وليس الله، وأن الفكر الإنسانى لا الوحى الربانى هو مرجع الإنسان فى النظر إلى أمور حياته ومعالجتها.

لقد تأثر ماركس بنظرية كوميت المادية، والتى يرى فيها أن المادة أسبق فى وجودها من العقل، وأن العقل متوقف فى وجوده على المادة، ولا يمكن أن يكون منفصلاً عنها، ويرى ماركس: أن العقل انعكاس للدماغ، والدماغ مادة. لذا

فالمادة هى الأصل، وما الفكر إلا ثمرة من ثمار المادة. خلافا لما يراه هيجل من أن الفكر والروح هما الأصل، وليست المادة إلا ثمرة لهذا الأصل، يقول ماركس: إن ما يسمونه الروح ليس جوهراً مستقلاً، إنما هو من نتاج المادة.

انطلاقاً من هذه النظرية المادية: يرى ماركس أن الأحداث والمنظمات الاقتصادية هى القوة الرئيسية المؤثرة على سياسة الدولة، وكذلك على العلم والدين وتطورهما، أما الأحداث الاجتماعية والسياسية والأخلاقية فهى انعكاس للأحداث الاقتصادية الراهنة.

نحن لا ننكر أثر العامل الاقتصادى فى الحياة الاجتماعية، أما أن يكون هو المؤثر الوحيد فذلك هو التطرف بعينه.

ترى بماذا يفسر ماركس الدفاع الذى يدفع المسلم لحساب أمواله وبدقة ليخرج عنها نسبة الزكاة. وما الدافع الذى يدفع المحسنين ليقدموا أموالهم فى المشاريع الخيرية دون أن ينالوا عليها ربحاً مادياً. ترى هل هى دوافع مادية أم دوافع روحية إنسانية؟

■ ■ ■

المادية الجدلية

- المادية الجدلية: كما يعرفها الأستاذ محمد قطب: هى تصور خاص لقضايا الألوهية والكون والحياة والإنسان، على أساس مادى بحت، تعتبر المادة فيه الشىء الوحيد الأصيل فى هذا الكون، وأن كل ما فى الكون ينبثق عن المادة، ومحكوم بقوانين المادة، ولا وجود له خارج المادة.

كما يقوم هذا التصور على أساس وجود التناقض فى طبيعة المادة، يقول كاريولينت: الجدلية هى فكرة ونقيضها، ثم تآلف النقيضين، فالفكرة تؤيد القضية، والنقيض ينفيها، وتآلف النقيضين يقربنا من الحقيقة، وهكذا تعود العملية من جديد، فتبدأ بفكرة ونقيضها، ثم يجرى التوفيق بينهما بتآلف جديد.

ويرجع مصدر الشيوعية فى فلسفتها المادية الجدلية إلى المنهج الديالكتيكى الذى قال به هيجل وعرفه بأنه: الحركة التى يقوم بها الوعى فى سعيه المستمر نحو التقدم، كما يرى أن التقدم فى عالم الطبيعة، ماثل كذلك فى عالم الفكر، ويقول هيجل: إن التناقض هو المبدأ لكل حركة فى الحياة، وهو وحده صراع الأضداد ولكن ماركس استغل هذه النظرية وعممها تعميماً شمل كل مظاهر الحياة. مع أن أبسط قواعد التأمل تثبت عدم صحة هذا التعميم، فظاهرتا الذكورة والأنوثة، والسالب والموجب، لا تخضعان لهذا التعميم مثلاً، لأن العلاقة بين الجنسين هى علاقة أنس وسكون وإخصاب، والعلاقة بين السالب والموجب هى علاقة تفاعل وتجاذب.

كما يؤكد العلم الحديث أن الذرات السالبة تتجاذب مع الوجبة وتتنافر مع السالبة وأن عدد الشحنات السالبة فى كل ذرة يساوى عدد الشحنات الموجبة، لذا فالذرة فى طبيعتها خالية من التناقض ولكن الماركسية تقول خلاف ما يقول العلم.

كما أن فكرة التقاء الأضداد فكرة مستحيلة عقلاً إذ لا يمكن للشىء أن يكون سالباً وموجباً فى آن واحد ولا موجود ومعدوم فى نفس الوقت فالجدلية المثالية تستهين بالعقل والمنطق وتعتمد المغالطات والأوهام، فلو طرحنا فكرة الحى عكسها الميت ينتج عنهما التفسخ والتراب ويكون التحول إلى نوع أدنى خلاف ما تدعى الماركسية.

يقول ماركس فى كتاب أ«صول الفلسفة الماركسية»: لم يختلف منهجى فى- الجدل- أساساً عن منهج هيجل، بل هو نقيضه تماماً، إذ يعتقد هيجل أن حركة الفكر التى يجسدها باسم الفكرة هى مبدعة الواقع الذى ليس سوى الصورة الظاهرية للفكرة، أما أنا فأعتقد العكس: أن حركة الفكر ليست سوى انعكاس حركة الواقع المادى وقد انتقلت إلى ذهن الإنسان، لذا سميت جدلية هيجل بالجدلية المثالية وجدلية ماركس بالجدلية المادية.

- أما الخطوط العريضة للمادية الجدلية فتتلخص فى نقطتين اثنتين.

أ- أزلية المادة وأبديتها وأسبقيتها على الفكر:

جاء فى كتاب أسس المادية الدياليكتيكية لسبركين وياخوت ما يأتى: ليس للكون نهاية ولا حدود فالعالم أبدى ليس له بداية، ولن تكون له نهاية، وعلى هذا فأى عالم غيبى- فى نظرهم- غير موجود، ولا يمكن أن يوجد، لذا قالوا: إن الظواهر المختلطة فى العالم توحدها ماديتها. ترى لماذا يؤمنون بوجود الكهرباء التى لا ترى بالعين المجردة، بل تعرف بآثارها، ولا يؤمنون بوجود الله الذى يعرف بآثاره وبمحاكمة العقل السليم؟!.

ب- خضوع الطبيعة لقوانين المادة الثابتة التى تحكمها هى:

١- الترابط فى الطبيعة: أى أن أى حادث من حوادث الطبيعة لا يمكن فهمه إذا نظر إليه منفرداً، وبمعزل عن الحوادث المحيطة به والتى تكيفه وتحدده.

٢- الحركة، هذه الحركة ملازمة داخلياً للمادة لا تنفصل عنها منذ الأزل لذا يقولون: إنه لا يوجد فى العالم ظاهرة واحدة لم تكن نتيجة لحركة المادة

وتطورها لذا يشير إنجلز إلى أن وحدة العالم تنحصر فى ماديته.

ولكن العلم يقرر بطلان هذه النظرية لأن التحول يتم عن تأثير خارجى لا داخلى كما يدعون، يقول موريس دوكين فى كتابه «المادة وضد المادة» ص٦٤-٦٥ ما يلى: لم نعد بحاجة إلى الجدلية لتفسير تحول المادة من نوع إلى آخر لأن العلم أثبت أن تحول المادة إلى تركيبات مختلفة لتندمجا فتصبح الذرتان ذرة واحدة من نوع ثالث ولابد من التأثير الخارجى لتتم عملية التحول وهذا لا يتفق مع قانون الجدل الذى يقوم على أساس التحول من الداخل.

٣- التطور: يقول ستالين فى الديالكتيك: إن التطور ينتقل من تغيرات ضئيلة وقتية إلى تغيرات ظاهرة أساسية، وهى ليست تدريجية بل سريعة فجائية، وهى ليست جائزة الوقوع بل ضرورية. وهى تنتقل من البسيط إلى المركب، ومن الأدنى إلى الأعلى. كما يرى أن انتقال المجتمع من حال إلى حال يصحبه تطور فى القيمة، فالرأسمالية- بنظره- أسمى من الإقطاع، والشيوعية أسمى من الرأسمالية. وادعاء أن كل شىء أسمى من سابقه مصدر براق فى الدعاية الشيوعية ينخدع به الكثيرون، ولكن ادعاء أن كل شىء جديد أسمى من القديم دعوة باطلة يقصدون من ورائها تحرير الإنسان من تراثه القديم، الدين والأخلاق والمثل.

ولو أنهم اقتصروا فى نظرتهم هذه على التقدم التكنولوجى لكان مقبولاً، أما أن يقصد به الدين والأخلاق فذلك مجافٍ للحق والواقع.

لقد غفل ماركس عن أن الشيوعية ستصبح مع مرور الزمن قديمة، وعندها يتوجب على الشيوعيين خلعها والانتقال إلى فكرة أسمى منها وأحدث، أم ترى أن نظرياتهم للتصدير فقط؟.

جـ- التناقض وصراع الطبقات:

يقوم الديالكتيك على أن كل ظواهر الطبيعة وحوادثها تحوى تناقضات داخلية، وأن لها جانباً سلبياً وآخر إيجابياً، وأن فيها عناصر تضمحل وعناصر

تتطور، وأن الصراع بين القديم والحديث هو المحتوى الداخلى لحركة التطور، فتتحول من تغيرات كمية إلى تغيرات كيفية.

وبناء على هذه القوانين يرى ستالين أن الثورات التى تقوم بها الطبقات طبيعية ولا مناص منها. وكذلك يرى أن الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية لا يكون إلا بالثورة، وحيث إن حركة المجتمع الطبقى البشرى جزء من حركة المادة، فقد حكمه قانون التناقض بداهة من منشئه المادى التاريخى، وجرى التناقض فى كل حركة من محركات البشر فى صورة صراع طبقى.

لذا لا يجوز فى نظرهم اتباع سياسة إصلاحية تقوم بالتنسيق بين مصالح البروليتاريا ومصالح البرجوازية. ولا سياسة تفاهم تقوم بالاندماج بين الرأسمالية والاشتراكية، فهذا ما ترفضه الماركسية، لأن خطها هو الصراع الطبقى لا التعايش الطبقى، والمجتمعات فى نظر ماركس تنقسم إلى طبقات متناقضة المصالح، وأن استغلال طبقة لطبقة أخرى هو أساس الحضارة وتحركها، وأن نمو الحضارة يسير فى تناقض مستمر، فكل تقدم فى الإنتاج يقابله تأخر فى أحوال الطبقة العمالية المضطهدة، وكل تحرير جديد فى إحدى الطبقات يعنى اضطهاداً جديداً لطبقة أخرى، والدولة فى نظر ماركس ما هى فى الأساس إلا وسيلة قهر طبقى لطبقة ضد عدة طبقات، وأن سيطرة الطبقة العمالية على السلطة هو تطويع لها لصالح التحول الاشتراكى.

لقد استخدم ماركس مبدأ النقيض الذى قال به نيتشه وهيجل فى مجال الاقتصاد، فكل شىء فى نظره يتضمن نقيضه الذى يصير إليه، بعد أن يهدم نفسه، فالمجتمعات الرأسمالية والإقطاعية ستهدم نفسها، وتتحول إلى النقيض، وهو المجتمع الشيوعى ذو الطبقة العمالية الواحدة، بعد صراع مرير تخوضه البروليتاريا «طبقة العمال» للقضاء على كل من يقف فى طريقها من الرأسماليين والإقطاعيين.

وترجع دوافع ماركس فى نظرية الصراع الطبقى كذلك إلى معتقداته

اليهودية التى تقول بفناء العالم بعد ألفى عام نتيجة الصراع، وأن أبناء إسرائيل هم الذين سيخرجون لتعميره فى نعيم لا تبديل فيه، وهذا ما أطلقوا عليه اسم «الميراث اليهودى».

لقد تجاهل ماركس أن مبدأ النقيض سينطبق على الشيوعية نفسها فهى تحمل بين طياتها بذور نقيضها.

كذلك ولابد أن تأتى اللحظة الحاسمة فيقع الانقلاب المفاجئ، وتنهار الماركسية ليحل محلها نقيضها وهو الإسلام إن شاء الله.

ولقد أثبت العلم الحديث أن هذه النظرية لا تمت إلى العلم بصلة وأنها محض أوهام، يقول موريس دوكين فى كتابه «المادة وضد المادة» ص٧١: لقد كان أهم نجاح تحقق فى محاولة استكشاف النواة هو بدون شك ما قام به رزفورد عام ١٩١٩ حيث قام بأول تحويل ذرى. ومادام العلم أثبت أن الذرة خالية من التناقض الداخلى ولم يعد من الممكن أن نقول إن حركة المادة جدلية ويعتبر هذا التصور الجدلى للمادة وهماً لا أساس له من الحقيقة ولما كشف الشيوعيون هذه الحقيقة أوجدوا لموقفهم المحرج مخرجاً فقالوا: يجب ألا يفهم هذا الأمر فهماً مبالغاً فى بساطته. إن الصراع بين الأضداد بمعناه الحرفى المباشر يحدث بصفة رئيسية فى المجتمعات الإنسانية. وقال لينين إن هذا التمييز لازم لفهم الصراع بين الأضداد فهماً سليماً. عن أسس الماركسية اللينينية ص١٠٢.

ولقد تقهقرت الماركسية فعلاً، ولكن ليس بسبب نظرية النقيض بل بسبب إخفاقها فى تحقيق السعادة لمريديها، نظراً لمخالفتها طبائع النفوس ومجانبتها الفطرة السليمة، وبعد أن انكشف زيفها أمام البائسين الذين خدعوا بها طويلاً، مما حدا بالحكام الشيوعيين لفرضها بالحديد والنار، فالحزب الشيوعى الذى لا يتجاوز عدده ١٠٪ من سكان الاتحاد السوفيتى- يتحكم بمجريات مصائر المواطنين، ويفرض عليهم نظاماً بوليسياً لا نظير له فى التاريخ. لقد أنزل قواته وبشكل مفاجئ فى تشيكوسلوفاكيا لمجرد رغبتها فى

ممارسة حقها فى الحرية. كما أقاموا جداراً وحراساً للفصل بين ألمانيا الشرقية والغربية حتى لا يهرب الألمان الشرقيون من نعيم الشيوعية الموهوم، كما حلوا حركة التضامن العمالية فى بولندا لمجرد مناداتها بالديمقراطية، كما احتلوا أفغانستان للقضاء على الثورة الإسلامية فيها.

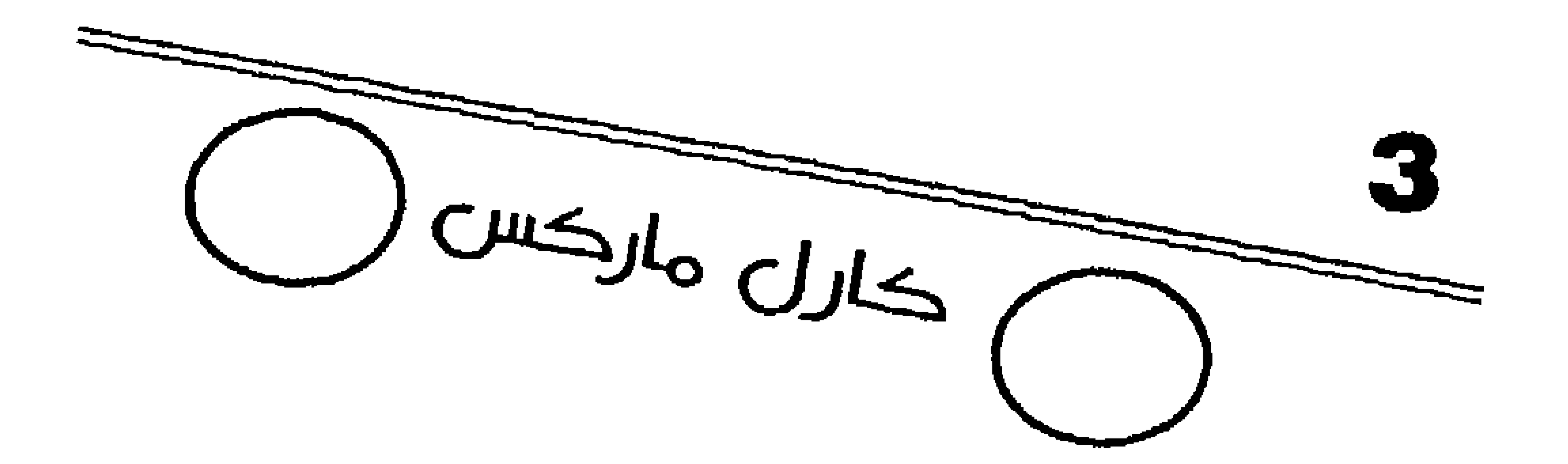
فلو أن الاتحاد السوفيتى منح شعوبه المحكومة حقهم فى اختيار النظام الذى يشاءون لما بقى أحد على شيوعيته، اللهم إلا الحفنة المنتفعة المتسلطة الحاكمة.

يقوم الصراع الطبقى على حقد وعداء الطبقة العاملة على أرباب العمل، بينما يقيم الإسلام مجتمعه على الصراع بين الحق والباطل، فهو يقف إلى جانب المظلوم سواء كان عاملاً أو رب عمل، يقف بجانب العامل إذا استغله صاحب العمل، ولم يعطه الحد الأدنى من العيش الكريم، كما يقف ضد العامل إذا قصر فى قيامه بعمله بجد وإتقان، فالإسلام يقيم علاقة متوازنة بين العمال وأرباب العمل قوامها الحق والعدل، ليكون المجتمع الإسلامى مجتمعاً متماسكاً متعاوناً متحاباً، وليعيش المسلمون حياة سعيدة بعيدة عن الحقد والخصومة والصراع.
لقد أدرك إنجلز تطرفه فى قوله بالمادية التاريخية التى دحضها العلم، وكذبها الواقع، فكتب فى آخر أيامه رسالة إلى يوسف بلوخ فى ١٨٩٠/١٠/٢٢. قال فيها: إن توجيه الكتّاب الناشئين للاهتمام بالجانب الاقتصادى بأكثر مما يستحق أمر يقع اللوم فيه على عاتقى وعاتق ماركس. لقد كان علينا أن نؤكد هذا المبدأ الرئيسى لنعارض خصومنا الذين كانوا ينكرونه.

إن الوضع الاقتصادى هو الأساس ولكن مختلف عناصر البنية الفوقية والأشكال السياسية للصراع الطبقى ونتائجه والأشكال الحقوقية. بل حتى انعكاسات هذه الصراعات الواقعية فى دماغ المساهمين فيها من نظريات سياسية وحقوقية وفلسفية ودينية تمارس أيضاً تأثيرها على مجرى الصراعات التاريخية وتحدد فى الكثير من الحالات- وبصورة قاطعة- شكلها. وأن القول بأن العامل الاقتصادى هو وحده العامل المحدد فإنه يكون بذلك حوله إلى حملة فارغة مجردة لاغية «التفسير الاشتراكى للتاريخ ص١٦٦».



المادية التاريخية



يقول الأستاذ محمد قطب:

لحقيقة أن المادية التاريخية والمادية الجدلية يصعب الفصل بينهما لأن كلاً منهما تكمل الأخرى، ولأنهما يصدران عن فلسفة واحدة كاملة.

فالتفسير المادى للتاريخ: هو تحليل للحوادث التاريخية يستند فيها إلى مبادئ البحث الجدلى الديالكتيك. لأن المادة فى نظر الماركسيين هى المحرك الرئيسى للتاريخ. والعامل المهيمن فى تطوره.

ويقول ماركس: إن الأوضاع القانونية والاجتماعية والسياسية والفنية والأدبية والفلسفية وجميع النواحى الفكرية عموماً لا يمكن أن تفهم بذاتها، لأنها تحدد وتتشكل وفقاً لتأثير العوامل المادية أو الاقتصادية عليها، فالأوضاع الاقتصادية هى الأساس الرئيسى الذى يؤثر فى جميع الأوضاع والنظم الاجتماعية والفكرية الأخرى، بحيث تتطبع هذه الأوضاع والنظم بالصورة التى يقتضيها النظام الاقتصادى القائم.

والتفسير المادى للتاريخ هو نوع من فلسفة التاريخ، يحاول فيه ماركس أن يوضح أن العادات التى تطورت فى المجتمعات من الماضى البدائى إلى الحاضر فالمستقبل وما يظهر فى المجتمع من مصلحين وعظماء ومفكرين لا تشكل بمجموعها تاريخ الجماعة.

لكن نمو هذه الأحداث التاريخية- فى نظره- يكون فى القوى المادية وحدها، وعلى الأخص الاقتصادية منها، والتى تكون بين رأس المال ومالكيه من جهة، وبين العمل والعمال الذين يصنعون الإنتاج من جهة أخرى، فإذا كانت هذه العلاقة متوازنة استقرت الجماعة، وإذا اضطربت تطلبت التغيير، ولا يتم ذلك الانسجام فى نظر ماركس إلا حينما تعود الصناعات جماعية، ولا يكون ذلك إلا بسيادة الشيوعية، وما دام الصراع قائما بين المستغلِّين والمستغلَّين فالتاريخ فى نظر ماركس هو صراع الطبقات السائدة والمسودة.

كما أنه لا مكان للرسل والرسالات ولا اللّه- جل شأنه- بالذات أى أثر فى التدخل بخط سير البشرية، كما أنه ليس للدوافع الروحية أى أثر فى تغيير خط سير البشرية، كما ليس لها أى أثر فى تغيير التاريخ وإنما الدوافع الوحيدة فى التغيير إنما هى دوافع مادية بحتة.

إنه من التطرف ومجانبة الحقيقة أن ينكر الإنسان الأثر الروحى فى التطور، أو أن ينكر الأثر المادى فيه.

فمما لا شك فيه أن الآلة تحدث تغييراً فى حياة الإنسان، ولكن يجب ألا ننسى:

أ- أن الآلة نفسها من اختراع الإنسان، اخترعها لتلبية حاجاته، وأنها لم تفرض نفسها عليه.

ب- أن التغيير الذى تحدثه الآلة لا يجرى على مزاجها لأن الآلة مادة، والمادة عاطلة، لا وعى لها، وأن ما يجرى من تغيير إنما يجرى على مزاج الإنسان، فالإنسان هو الفعّال فيها، والآلة هى العاطلة، والإنسان هو الذى يندفع لتطويرها وفق مصلحته وحاجاته الحيوية بما تفرّد به من خصائص فطره الله عليها، والتى حرمتها المادة وسائر الحيوانات الأخرى، فالإنسان إذا بخصائصه الفريدة هو الذى يصنع تاريخ الجماعة، لا المادة العاطلة.

لقد أصاب الأستاذ محمد قطب بتسميته التفسير المادى للتاريخ بالتفسير الجاهلى للتاريخ، ذلك لأن ماركس وجنده اعترفوا بفترة الجاهلية بما فيها من مفاسد ومظالم لبنى الإنسان، وأسقطوا فترة الهدى النبوى من التاريخ البشرى بكل ما أحدثته مبادئ الإسلام من رفع لكرامة المرأة، وتحرير للإنسان من سيطرة أخيه الإنسان، ومن توحيد للأمة الواحدة الممزقة، ومن تحقيق لمبادئ الحق والعدل والمساواة.

ولا أراهم تجاهلوا فترة المد الإسلامى فى التاريخ إلا لأنهم عجزوا عن أن

يفسروا هذا التطور فى المجتمع الإسلامى تفسيراً مادياً، لأنه لم يحدث نتيجة تطور فى وسائل الإنتاج بل نتيجة الإيمان بتعاليم الإسلام، وهذا سبب روحى لا مادى، تعاموا عن هذه الفترة الإسلامية وأسقطوها من حسابهم. إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور.

■ ■ ■

الحتمية التاريخية

- الحتمية التاريخية أو الخماسية التاريخية: يقرر ماركس أن المجتمعات البشرية تمر بخمس مراحل اقتصادية هى:

أ- المشاعية البدائية: وهى حقبة ما قبل التاريخ، حيث لم يكن الإنسان يملك شيئاً، وما إن اكتشف الزراعة حتى ظهرت طبقات: طبقة تترأس، وطبقة تعمل. ونتيجة لهذا التقسيم تركز فى أيدى المترأسين فائض الإنتاج، فنشأت الملكية الخاصة.

ب- ثم انتقل إلى نظام الرق فالناس سادة وعبيد.

جـ- ثم تحول إلى النظام الإقطاعى، فالإقطاعيون يملكون والعبيد يعملون.

د- وبالتحول إلى الصناعة نشأ النظام الرأسمالى، وفيه تتميز طبقتان: طبقة الرأسمالية وطبقة العمال. يقول ماركس: إن التناقض هو السمة الرئيسية لهذه المرحلة، ويشتد هذا التناقض كلما شعر العمال بحاجة أرباب العمل لهم، فيتقدمون بمطالبهم لينالوا حقوقاً أكثر، ويقدم الرأسماليون تنازلات أكثر، ويستمر الصراع، وتزداد مطالب العمال إلى حد لم يستطع الرأسماليون الاستجابة لطلبات العمال، فينفجر الوضع، وتحدث الثورة العمالية، وتسيطر البروليتاريا على الحكم، ويصل المجتمع إلى المرحلة الأخيرة.

هـ- الشيوعية العليا: وفيها تزول الملكية الفردية، ويسيطر العمال، ويرى ماركس أن هذه النظرية حتمية الوقوع، لأنها مرتبطة بعوامل اقتصادية خارجة عن إرادة الإنسان، وأن العالم بأسرته سيؤول فى النهاية إلى الشيوعية نتيجة تدرجه فى هذه المراحل.

- نقض النظرية: لقد أثبت العلم أن النظرية وهمية، لأن مخترعها لم

يقدم أى دليل علمى على صحتها:

١- لعدم توافر المعلومات التاريخية الموثوقة التى تشير إلى وجود هذه المراحل. ذلك لأن المشاعية البدائية هى مرحلة ما قبل التاريخ.

لذا فهى ظنية الوقوع، وقد اعترف أنجلز بذلك فى كتابه «حول الأسرة» ص٥٠ حيث قال: فما أكثر الروايات التى فى حوزتنا حتى عن القبائل البشرية المتوحشة، وما أحوجها إلى الفحص والتدقيق والغربلة.

٢- أما مرحلة الرق فلم تكن نتيجة عوامل اقتصادية كما زعم ماركس، بل كانت نتيجة الحروب والغزو والسبى بين القبائل المتنازعة، وقد تعارفت الدول على الاسترقاق- الأسر- قبل الإسلام، ولما جاء الإسلام أخذ بهذا العرف الدولى تعاملاً بالمثل، إذ لا يمكن أن يسترق الأعداء المسلمين ويطلق المسلمون أسرى أعدائهم. ولكن الإسلام عالج ظاهرة الرق بوسيلتين:

أ- عمل على إلغائه تدريجياً بالمكاتبة وذلك بدفع الرقيق مبلغاً من المال تقسيطاً لقاء تحريره، وكذلك إذا تزوج السيد أمته وولدت منه تصبح أم ولد، ولا يحق له بيعها بعد ذلك، وكذلك شجع الرسول ﷺ على فداء الأسير فى بدر بتعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة، كما أفراد الإسلام باباً من مصارف الزكاة خاصاً بتحرير الرقاب ﴿وفى الرقاب﴾ كما جعل كفارة بعض الذنوب عتق رقبة.

ب- أمر بحسن معاملة الرقيق، وأعلن مساواتهم بأسيادهم فقال عليه الصلاة والسلام: «إخوانكم خولكم جعلهم الله قينة تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه وليلبسه من لباسه ولا يكلفه ما يغلبه فإن كلّفه فيلعنه» رواه أحمد عن أبى ذر.

أما مرحلتا الإقطاع والرأسمالية فقد كان لليهود الدور الرئيسى فى وجودهما نظراً لسيطرتهم على الاقتصاد العالمى، وتعاملهم بالقروض الربوية، وبتفجيرهم الأزمات الاقتصادية التى دمرت أناساً، ورفعت آخرين، أما ادعاء

ماركس أن هذه الأدوار خارجة عن إرادة الإنسان فذلك مرفوض عقلاً، لأن المادة عاطلة، والإنسان هو العنصر الفعّال فيها، يسخرها لصالحه، ولئن لوحظ زوال هاتين المرحلتين فى المجتمع الإسلامى الأول فذلك لأن الإسلام يحارب الربا والاستغلال والاحتكار، ويأمر بتشغيل المال وتزكيته، والإنفاق منه فى وجوه البر.

٣- ومن الأدلة العفوية على بطلان هذه النظرية أنه لا توجد دولة اشتراكية واحدة وصلت إلى الشيوعية عن طريق التدرج فى هذه المراحل الخمس المزعومة.

كما لم تصل نتيجة الصراع الطبقى بين العمال وأصحاب العمل من الرأسماليين، فتحول روسيا نفسها إلى الاشتراكية لم يكن منتظراً، فحين سئل ماركس عن البلدان التى يتوقع تحولها إلى الاشتراكية أشار إلى بريطانيا وفرنسا وألمانيا، نظراً لتقدمها الصناعى، أما روسيا فكانت تحاول أن تضع أقدامها على عتبة الصناعة، ولكن نتيجة انهماك الحكم الروسى فى الحرب العالمية الثانية، وبمساعدة الرأسمالى اليهودى، كما أكد ذلك المليونير اليهودى يعقوب تشيف عام ١٩١٧م، وبدعم من الصهيونية العالمية، سيطر الشيوعيون على الحكم فى روسيا، وذلك انتقاماً للمذابح التى حدثت لليهود فى عهد القياصرة فى نهاية القرن التاسع عشر، لذا قررت الصهيونية والماسونية التوغل والانتقام لها وتبعت روسيا كذلك أوكرانيا وجورجيا والأزدك، مع أن هذه الجمهوريات السوفيتية كانت متخلفة صناعياً، وموغلة فى النظام الزراعى الإقطاعى، وكذلك وصلت مناطق التركمان وسيبيريا المتخلفة صناعياً إلى الحكم الاشتراكى بعد أن خدعها لينين بوعوده الكاذبة، حيث وجه نداءه المشهور إلى الشعوب الآسيوية الإسلامية فور استيلائه على السلطة فى روسيا عام ١٩١٧م، والذى ناشدهم فيه العون والتأييد للوقوف فى وجه الاستعمار الغربى مقابل منحهم الحكم الذاتى. ولكن ما إن تمكن الحزب الشيوعى من حكم روسيا بالحديد والنار حتى قام الجيش الأحمر بقيادة بودبتى بالهجوم على هذه الجمهوريات بحجة القضاء على أوكار الرجعية وسيطر عليها بقوة السلاح.

وكذا ألمانيا الشرقية لم يكن تحولها إلى الاشتراكية نتيجة مرورها بالمراحل الخمس الحتمية، ولا نتيجة الصراع بين العمال وأصحاب العمل كبلد صناعى متقدم، ولكنه كان نتيجة انكسار الجيش الألمانى فى الحرب العالمية الثانية، وخضوع القسم الشرقى إلى سيطرة السوفيت بعد تقسيم ألمانيا إلى شرقية وغربية، بهذا يتبين أن الحتمية التاريخية حتمية وهمية فى رأس ماركس ولا أساس لها فى الواقع التاريخى، مما دفع البعض إلى أن يعزى سبب تحول روسيا إلى الاشتراكية إلى عوامل معنوية وفكرية وأدبية، وبهذا فإنه يعطى الأولوية للعوامل المعنوية على العوامل المادية، وفى ذلك نسف للمادية التاريخية من جذورها.

وهكذا فلا روسيا ولا أى بلد اشتراكى تحول إلى الماركسية نتيجة أفول النظام الرأسمالى تحت وطأة تناقضاته الحتمية، وسيطرة البروليتاريا بعد صراعها مع الرأسماليين، بل كان تحولها نتيجة السيطرة العسكرية، مما يؤكد تهافت الخماسية التاريخية التى اخترعها ماركس.

■ ■ ■

المساواة فى الأجور ونظرية فضل القيمة

- المساواة فى الأجور ونظرية فضل القيمة: وخلاصة هذه النظرية أن الربح الذى يحصل عليه صاحب المصنع والمزرعة بعد سداد تكاليفه ومصاريفه ليس من حق صاحب العمل وحده «بنظر ماركس» بل هو من حق العمال كذلك يتقاسمونه فيما بينهم ولا يحق لصاحب العمل أن يحسب حصة من الربح لرأس المال أو للآلة لأن المنتج الوحيد بنظره إنما هو الجهد البشرى فقط. ويرى ماركس أنه مادام هناك فضلة فى القيمة فهناك فضلة فى الإنتاج وبالتالى فهناك بطالة.

وقد غاب عن فكر ماركس تطور الآلة وأنها ستحل محل الجهد البشرى كما فى عصرنا الحاضر عندما سيكون فائض قيمة إنتاجها من حق مالكها فتكون نظريته بذلك نسفت من جذورها.

ترى أى أحمق يضع ثروة عمره فى مصنع ما ليأخذ أجراً يعادل أجر أى عامل آخر، أو أكثر قليلاً، حتى لو جمع ثروته عن طريق مشروع وأعطى عماله الحد الأدنى من الأجور الذى يكفل لهم العيش الكريم، وأنصف سائر العاملين معه. أليس فى ذلك حد للطموح الشخصى، وإضعاف للإنتاج والفاعليات الاقتصادية التى يفتقر الوطن إليها؟

ثمة سؤال آخر: ترى هل تعطى الدولة الشيوعية العاملين عندها كامل قيمة ما ينتجون من مصنوعات، أم أنها تسمح لنفسها باستغلالهم وأخذ فضلة قيمة ما ينتجون؟ كما يفعل الرأسماليون سواء بسواء فتحرم ذلك عليهم وتحله لنفسها، وهذا ما يحدث بالفعل، لقد اعتمدت الماركسية مبدأ توزيع الأجور فى المرحلة الاشتراكية وفق قاعدة: من كلٍ حسب طاقته ولكلٍ حسب عمله.

ونظراً لأن الناس متفاوتون فى الملكات والطاقات والخبرات والمهارات فلابد أن يتفاوتوا فى الإنتاج، وبالتالى فى الأجور، فيكسب المجد أضعاف ما يكسب الكسول، فلقد تراوحت نسبة الأجور فى روسيا بين ٥ ,١٪ و٥٪ أى أكثر من ثلاثة أضعاف، مما يؤدى بالتالى إلى عودة الطبقية فى المجتمع الاشتراكى. وهذا ما يناقض أهم مبادئ الماركسية، لذا فالشيوعية إزاء ذلك أمام خيارين لا ثالث لهما إما أن يأخذوا بمبدأ لكلٍ عمله وبذلك يتنازلون عن أهم أفكارهم، أو أنهم يسيرون على نهج المجتمع الرأسمالى، فيقطعون من العمال فائض قيمة ما ينتجون، ويسوون بين الأجور، وفى هذه الحالة يتقاعس المجدون، ويكسل المبتكرون، ويفتر الطامحون، نظراً لمساواتهم بالكسولين، لذا لجأ إنجلز إلى تبرير ذلك بقوله: يزداد إنتاج العامل الكفء المجد نتيجة دراسته وتدريبه، ومادامت الدولة الشيوعية هى التى تدفع له مصاريف الدراسة والتدريب فهى صاحبة الحق فى أن تأخذ فائض قيمة ما ينتج من مصنوعات وفى تسويتها أجور العاملين عندها. وللرد على هذا التعليل نطرح السؤال التالى: لو فرضنا أنهم أتاحوا فرصاً تدريبية وتعليمية واحدة لعاملين اثنين، وكان أحدهما أكثر ذكاء وأكبر طاقة على الإنتاج والابتكار من الآخر فبماذا يبرر إنجلز مساواتهما فى الأجور؟!.

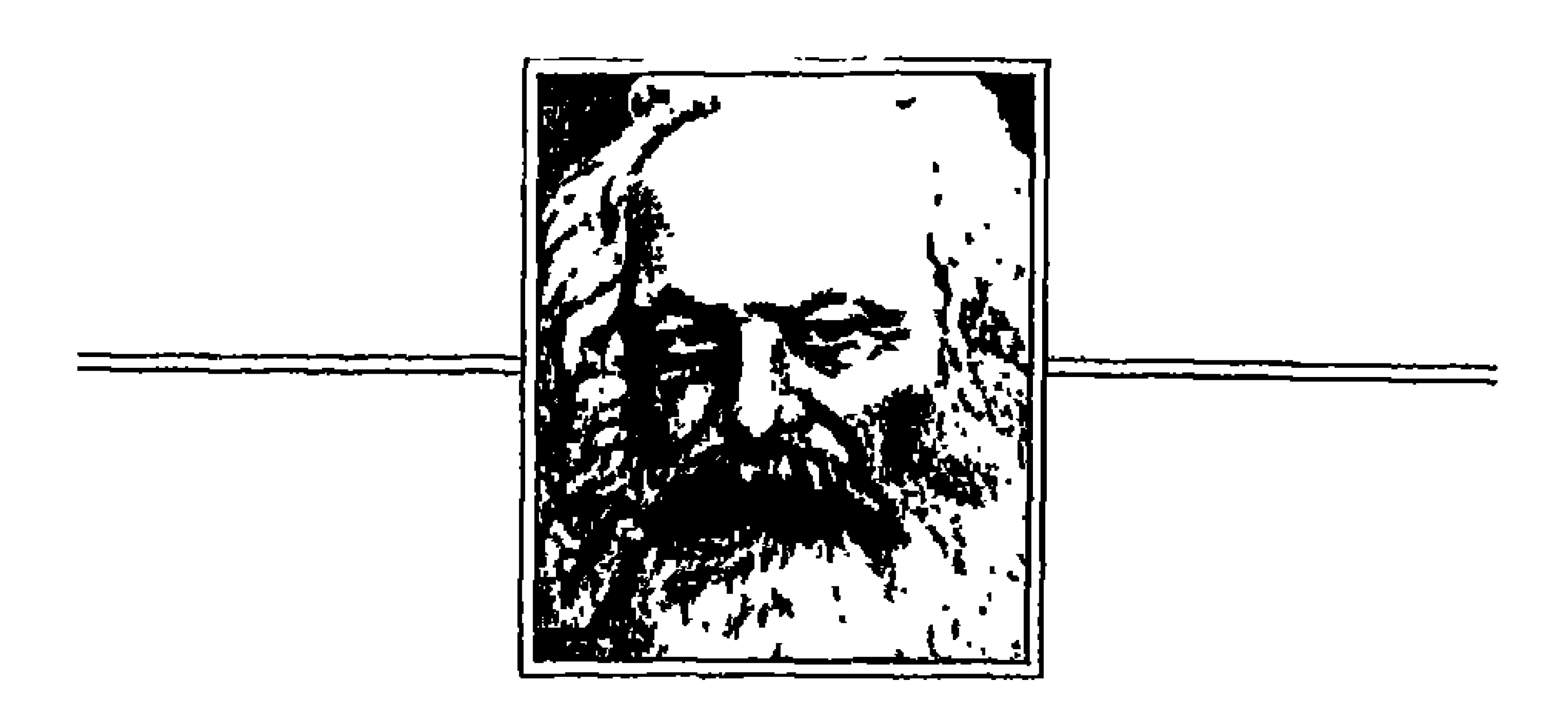
ولا أدل على فساد هذه النظرية من تراجع مخترعها عنها، لقد فاجأنا إنجلز بظهور كتاب «القسم الثالث من رأس المال» الذى عثر عليه بين مسودات أوراق ماركس بعد موته، إذ يقرر فيه ماركس أن جملة أثمان الإنتاج مكونة من رأس المال + قيمة العمل + الإدارات.

وهذا يعنى أن الأرباح توزع على هذه الثلاثة، وأن ماركس أعطى لرأس المال حصته من الأرباح، وبهذا يكون قد نسف نظرية فضل القيمة من جذورها، ولم يبق لصراع الطبقات مبرراً، ومن الغريب أن الشيوعيين يزالون متمسكين بهذه النظرية حتى بعد تراجع مؤسسها ماركس عنها قبيل وفاته.

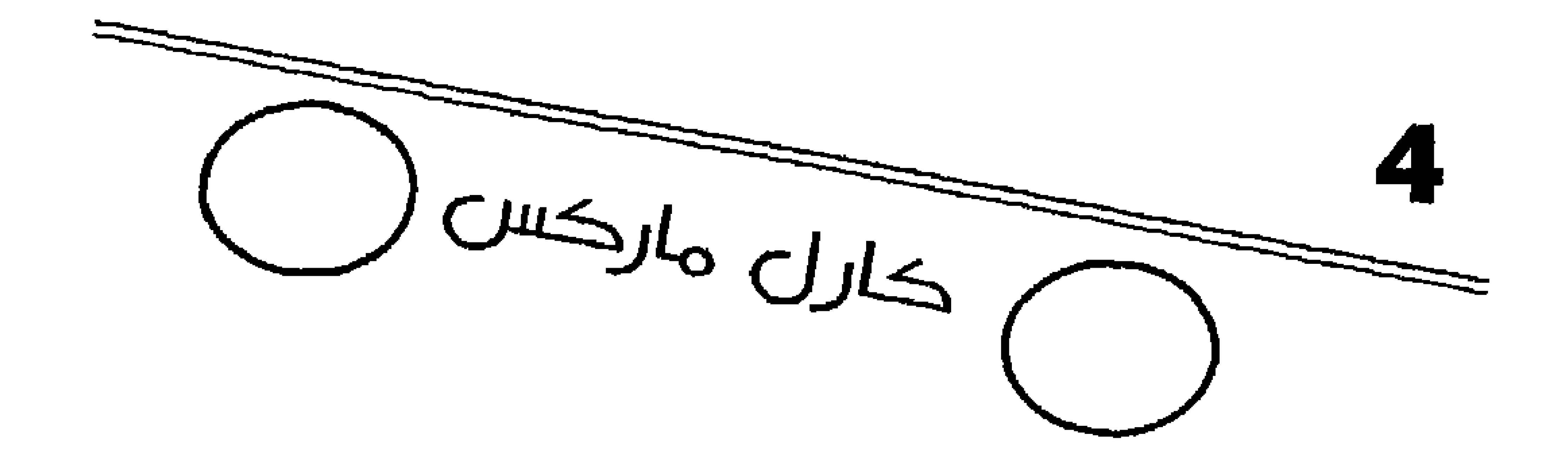
ولابد بعد تخبط الماركسيين فى موضوع الأجور من أن نقدم الرأى الأرجح

والأصلح وهو رأى الإسلام، حيث يحض المسلمين على العمل، ويحض على إعطاء العامل الحد الأدنى من الأجور الذى يؤمن له العيش الكريم، وإعطائه أجر عمله الإضافى، وأجر إنتاجه، وابتكاره، فيكون شعاره فى ذلك: من كلٍ حسب طاقته، ولكلٍ حسب حاجته وإنتاجه.

■ ■ ■



الماركسية والتملك



الماركسية والتملك:

اختلف المختصون فى علم النفس فيما إذا كان حب التملك نزعة فطرية أم مكتسبة. فعللها بعضهم بأنها نزعة فطرية نظراً لما لاحظوه من تشبث الطفل بلعبه، وميله لجمع كل ما يقع تحت يده. ورد عليهم آخرون بأنه لو كان لعدة أطفال لعب بعددهم لما تنازعوا عليها. وجاء الرد على أصحاب هذه الحجة بأن الكثيرين من الأطفال يحاولون الحصول على أكثر مما فى أيديهم فيسلبون لعب الآخرين.

ولو سلمنا جدلاً بأن كل طفل اكتفى بلعبته إذا تأمن للجميع العدد الكافى من اللعب «وهذا غير واقعى» نقول: إن ذلك لا ينفى أن يكون التملك نزعة فطرية مادام كل طفل قد تملك لعبة على الأقل أشبع بها ميله للتملك. ثم إن أحداً من اليساريين لم يجزم بأن التملك ليس نزعة فطرية– وجل ما قالوه فى ذلك: إنه لا يوجد دليل قاطع على أنها نزعة فطرية– ولو أنهم وجدوا دليلاً واحداً على أنها ليست فطرية لما تقاعسوا عن الاحتجاج به.

يقول الشيوعيون: إن المجتمع البدائى كانت تسوده الشيوعية، كل شىء فيه ملك للجميع، وكانت تسود الجميع روح المحبة والتعاون، ولكن مع الأسف لم تدم هذه الفترة طويلاً، فقد ظهرت بعد اكتشاف الزراعة روح التنافس على تملك الأرض ووسائل الإنتاج، ولابد من انتزاع التملك فى نظرهم لتعود للمجتمع سعادته.

هذا القول حجة عليهم لا حجة لهم، ذلك لأن فترة ما قبل الزراعة لم يكن ثمة ما يمكن تملكه ليقع التنافس بين البدائيين على تملكه. إذ كيف يقوم النزاع على شىء لا وجود له. وما إن وجدت الزراعة حتى سارع الناس لتملك الأرض استجابة لنداء الفطرة التى فطر الله الناس عليهم. ثم ما من أحد ينكر أنه كان هنالك– فى مرحلة ما قبل الزراعة– صراع على تملك امرأة بسبب جمالها على الأقل، وذلك فى مجتمع كانت تسوده الشيوعية الجنسية آنذاك، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ

مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران ١٤).

يقول بلانكى أحد أصدقاء ماركس فى فكره الشيوعى: يخطئ أولئك الذين ذهبوا إلى أن تقدم المجتمع بدأ من صورة بدائية للشيوعية، ثم سار فى سلسلة الصراعات والتغيرات، إلى أن يعود للشيوعية فى صورة أكبر نمواً. ويخطئ من يظن أن المجتمعات البدائية كانت شيوعية لمجرد أنه لم تكن هنالك ملكية فردية فى الأرض. والصحيح أنها كانت شديدة الفردية، لأن الملكية لا تنشأ إلا عندما تصبح الأرض قادرة بالنسبة لعدد السكان الذين تعولهم.

أما ادعاؤهم أن الملكية الفردية هى سبب ظلم الطبقات العاملة فهذا ادعاء باطل، لأن منشأ الظلم الذى لحق العمال فى أوروبا وفى العصور الوسطى كان سببه تسلط الرأسماليين الجشعين على الحكم، وإقرار رجال الدين لهم على ظلمهم، والذين راحوا يشرعون لصالح الطبقة الحاكمة، فى فترة ضعف فيها الوازع الدينى، نتيجة الفصام النكد بين السلطة والكنيسة، بخلاف المجتمع الإسلامى الذى لم يعط الحكام فيه حق التشريع، بل حصر مهمتهم فى الحفاظ على إقامة شرع الله العادل فى الأرض.

وثمة دليل آخر يثبت بطلان هذا الزعم الخاطئ، إذ يروى لنا التاريخ أن هناك صراعات قامت بين أبناء الطبقة الواحدة والحزب الواحد لم تكن الملكية سبباً لها، ولم تقم على أساس الصراع الطبقى.

لقد ألغت الشيوعية الصراع الطبقى فلم قام الصراع بين لينين وتروتسكى، وبين ستالين وبيريا، وفيم قام النزاع بين الصين وروسيا؟!٥٥

مما يدل بوضوح على أن إلصاق الشرور كلها بالملكية الفردية ادعاء غوغائى تعسفى لا دليل عليه.

ونظراً لأن فكرة نزع الملكية تخالف الفطرة فقد تخبطت الشيوعية فى تطبيقها فكرة نزع الملكية كما يتضح مما يلى:

١- لقد أخفقت الشيوعية فى التسوية بين الأجور نظراً لما لاحظه حكامها من ضعف فى الإنتاج، وسوء فى نوعيته، بسبب تسويتهم بين أجور المجدين والخمولين، وما إن أدرك ستالين هذه الحقيقة حتى قال فى خطابه عام ١٩٣٤: (إن هؤلاء القوم يحسبون الاشتراكية تستلزم المساواة فى مطالب العيش لكل من أفراد المجتمع. ألا ما أسخفه من رأى يخرج عن فكر مهوش شتيت. إن المساواة التى ينادون بها أخذت تلحق ببضاعتنا أكبر الأضرار) عن كتاب (نقد الماركسية).

إن اعتراف ستالين هذا دليل على الاضطراب الذى تعانيه الماركسية، ذلك لأن التفاوت بين الأجور سيؤدى إلى التملك فى دولة تحارب التملك، سيما عند أصحاب الدخل الكبير من قيادات الحزب الحاكم والفنانين والفنانات وغيرهم.

٢- كما أخفقت الماركسية فى منع التملك، فقد سمح لينين بالتملك عام ١٩٢١، ثم ألغاه عام ١٩٢٦، ثم اضطروا للسماح به عام ١٩٣٢، فأجازوا للفرد أن يتملك قطعة أرض صغيرة، وبعض العجول والأغنام والدواجن والأدوات الزراعية- وهى من وسائل الإنتاج الممنوع تملكها- كما جاء فى المادة العاشرة من الدستور الروسى الجديد: إن حق الملكية الشخصية للمواطنين فى دخلهم وتوفيرهم الناجمين عن عملهم وفى ملكيتهم واقتصادات بيتهم الإضافية، وكذلك حقهم فى إرث الملكية الشخصية حق مصون بموجب القانون. بهذا التخبط والتراجعات أثبتت الشيوعية عدم صلاحيتها للحياة، مما اضطرها للتراجع- ولو قليلاً- عن مبادئها الأساسية، مقتربة من واقعية الإسلام التى توازن بين النزعة الفردية والمصلحة الجماعية، دون أن تفنى إحداها على حساب الأخرى، فلم تسحق الفرد لحساب المجتمع، ولم تظلم المجتمع على حساب الفرد.

ولئن سمح الإسلام بالملكية الفردية إلا أنه قيدها بعدم الإضرار بمصلحة المجتمع.

فلقد حرم كنز الأموال، وأمر باستثمارها وتزكيتها، كما حرم الربا والاحتكار، ووسائل الكسب غير المشروع، ومنح الحاكم المسلم حق التدخل فى الملكية الفردية لصالح الجماعة، فى الحالات التالية:

١- لمصلحة عامة كانتزاعها لتوسيع طريق أو بناء مسجد أو مدرسة وغيرها.

٢- لدفع الضرر عن الآخرين إذا كانت المنفعة الشخصية أقل من الضرر الذى تلحقه بالآخرين.

٣- لسداد دين امتنع المالك عن أداء حق الغير، فيباع من أملاكه ما يكفى سداد الدين.

٤- إذا احتكر سلعة أو امتنع عن بيعها مع حاجة المسلمين إليها فيجبر على بيعها.

٥- إذا داهمت الأمة كارثة، أو هوجمت من أعدائها، فلأمير المسلمين أن يأخذ من أموال الأغنياء ما يدفع به الضرر بعد أن يستنفد أموال الدولة، لأن الإسلام أقام مجتمعه على التعاون والتكامل، لا على الصراع الطبقى والحقد قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة: ٢) ولم يجعل مقياس النجاح سيطرة طبقة على طبقة، بل جعله فى سيطرة الحق والعدل على سائر طبقات المجتمع قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠).

بهذه المفاهيم وعلى هذه الأسس أقام الإسلام دولة مثالية، ومجتمعاً سعيداً، لايزال يدغدغ حلم الشيوعيين الذين لم يصلوا إلى عُشر معشاره فى دولهم القائمة.

■ ■ ■

الماركسية والدين

بين الماركسية والدين عداوة شديدة وحرب لا هوادة فيها ولا مهادنة، وهذا أمر طبيعى، فإن الماركسية نظام مادى يستمد فكرته من نظرية فلسفية ملحدة تزعم أن كل ما يقع فى التاريخ من حركات فإن مرجعه إلى الأسباب الاقتصادية، ولا مرجع له غيرها، ومادامت الأسباب الاقتصادية- دون غيرها- هى التى تملى على التاريخ حركته وتسيره حيث تشاء فلا مجال هناك للاعتراف بإله خالق أو قوة وراء الغيب توجه البشر إلى مصايرهم بقدرة وإرادة.

والدين عند الماركسيين أصدق مثال على أن الأفكار انعكاس للواقع، فالله كفكرة هى ثمرة وضع الناس فى المجتمع القديم.

يقول إنجلز: إن الدين يولد من نظريات الإنسان المحدودة وهذه النظريات محدودة بعجز الناس البدائيين المطلق تقريباً أمام الطبيعة المعادية التى كانوا لا يفهمونها، وهى محدودة من ناحية ثانية بتعلقهم الأعمى بالمجتمع الذى لا يفهمونه، والذى كان يبدو لهم أنه تعبير عن إرادة سامية.

وهكذا كانت الآلهة وهى الكائنات المهمة الجبارة المسيطرة على الطبيعة والمجتمع انعكاساً ذاتياً لعجز الناس الموضوعى أمام الطبيعة والمجتمع.

وكان على تقدم العلوم الطبيعية والاجتماعية أن يظهر طابع المعتقدات الدينية الوهمى (الاعتقاد بوجود آلهة متعددة ثم بوجود إله واحد) ومع ذلك فطالما استمر استغلال الإنسان للإنسان، استمرت الظروف الموضوعية التى تحمل على الاعتقاد بوجود كائن فوق البشر يوزع السعادة والشقاء على الناس أو كما يقولون «الإنسان يرجو ويأمل والله يحكم ويقرر».

ولذا كان الفلاح فى روسيا القديمة وقد أرهقه الفقر وفقد كل أمل

بالمستقبل يستسلم للإرادة الإلهية.

ولقد جاءت الثورة الاشتراكية فوضعت فى يد المجتمع السيطرة على قوى الإنتاج ومكنته من الطبيعة والسيطرة، عليها فوجدت حينئذ الظروف الموضوعية لتتمحى عن وعى الناس الأفكار الدينية التى ولدتها ظروف موضوعية أخرى.(1)

فليس الدين- عند الماركسيين- إلا تفسيراً خاطئاً للظواهر الاجتماعية، وبقية من بقايا النظم الاستغلالية البالية ولونا من الخداع صنعه بعض الناس ليستعبدوا به كل الناس، فهو عندهم مظهر جهل ووسيلة استغلال وحيلة مخادع.

ومن واجب الماركسيين- لذلك- أن ينبذوه ويتحللوا من قيوده ويتبرءوا من كل آثاره ومع إنكارهم للدين ينكرون معه الإله الخالق المدبر لهذا العالم.

يقول «ماركس»: (لا إله.. والحياة مادة).

ويقول (الدين أفيون الشعوب ويجب أن يزول).

ويقول «لينين»: (نحن لا نؤمن بوجود إله).

ويقول: (إننا لا نؤمن بالله ونحن نعرف كل المعرفة أن أرباب الكنيسة والإقطاعيين والبرجوازية ولا يخاطبوننا باسم الله إلا استغلالاً). (2)

ويقول: (ليس صحيحاً أن الله هو الذى ينظم الأكوان، إنما الصحيح أن الله فكرة خرافية، اختلقها الإنسان ليبرر عجزه، ولهذا فإن كل شخص يدافع عن فكرة الله إنما هو شخص جاهل وعاجز).(3)

- الشيوعية والأديان: يقصد الشيوعيون من تفسيرهم المادى للدين والأخلاق أمرين: أولهما أنها ليست ذات قيم قائمة بذاتها لذا فهى بنظرهم ليست ثابتة وليست قدسية.

(1) أصول الفلسفة الماركسية، ص٢٩٦.

(2) انظر الإسلام والشيوعية، د.عبدالحليم محمود، الإسلام والشيوعية، ص٧٧.

(3) انظر «حركات ومذاهب فى ميزان الإسلام» لفتحى يكن، طبعة مؤسسة الرسالة.

وثانيهما: أنها انعكاس للأحوال المادية والاقتصادية، وأن الوضع المادى القائم هو الذى ينشئ الأفكار والأخلاق المتعلقة بالدين، لذا فهى كذلك ليست ثابتة، بل تتغير بتغير الوضع الاقتصادى للجماعة، مما يفقدها قيمتها. وينطلق ماركس فى تفسيره المادى هذا إلى ادعائه أن العقل انعكاس للمادة، وأن المادة هى المؤثر الوحيد فى هذه الحياة، لذا فقد أنكر ماركس وجود الله، كما أنكر الروح وأثرها فى النفس والمجتمع، يقول ماركس فى كتابه (رأس المال): ليس العالم الدينى إلا انعكاساً عن العالم الواقعى. وينقل عنه هنرى لوفاهز فى كتابه «ماركس» قوله: «الدين لا يصنع الإنسان (يعنى لا يؤثر فيه) ولكن الإنسان يصنع الدين. الدين هو زفرة الكائن المشتعل بالألم، وروح عالم لم يبق فيه روح، وفكر عالم لم يبق فيه فكر، إنه أفيون الشعوب».

وهنا يتساءل العلامة محمد باقر الصدر فيقول: وإذا كان يحلو للماركسية أن تؤمن بأن الطبقة المالكة المسيطرة هى التى تصنع الدين لحماية مصالحها فمن حقنا أن نتساءل؟ هل كان من مصلحة هذه الطبقة (يعنى المسلمين) أن تجعل هذا الدين أداة فعالة للقضاء على رأس المال الربوى الذى كان يدر عليها أرباحاً طائلة قبل الإسلام. وهل كان من مصلحتها أن تتنازل عن أرستقراطيتها وتعاليها على من دونها فتنادى بالمساواة بين الناس، وتعتبر التقوى والاستقامة مقياساً للتفاضل بين الناس؟! إذاً فالدين هو الذى أثر فيها، وجعلها تتنازل عن أرباحها غير المشروعة، وعن امتيازاتها.

يقول إنجلز: ومهما يكن من شىء فليس الدين إلا الانعكاس الوهمى فى أذهان البشر لتلك القوى الخارجية التى تسيطر على حياتهم اليومية (انتى دوهرنغ) يقول مولوتوف: لن تنتشر الشيوعية فى الشرق إلا إذا أبعدنا أهله عن تلك الحجارة التى يعبدونها فى الحجاز.

يقول لينين: إن الله هو تاريخياً وشعبياً وقبل كل شىء مجموعة من الأفكار ولدها غباء الإنسان المكبل بالأغلال، ويقول: إن دعايتنا يجب أن تكون بالضرورة مشتملة على الدعاية للإلحاد، ينبغى علينا أن نحارب الدين عندهم.

هذا هو ألف باء كل المادية وبالتالى الماركسية، ويقول: إن الماركسية هى المادية وبصفتها هذه فهى معادية للدين معاداة لا رحمة فيها (عن كتاب نصوص حول الموقف من الدين).

نشرت جريدة «البرافدا» فى ١٧ أيلول ١٩٤٤ مقالاً لستالين عن الدين جاء فيه: إن دولة السوفييت لا يكفيها الوقوف موقفاً محايداً تجاه الدين، فالحزب الشيوعى يقف بجانب المادة، فى حين أن الدين يناهض المادة، الدين والشيوعية مثلهما مثل النار والماء، ولا مكان للدين فى الديار الشيوعية أبداً، فكل دين من الأديان هو والمادة على طرفى نقيض.

ترى لماذا حارب الشيوعيون النصرانية والإسلام، وسكتوا عن اليهودية بل شجعوها، هل لأن اليهودية هى التى دفعتهم لصنع الحزب الشيوعى ووضعه فى خدمتها، أم لأن مبادئ اليهودية مبادئ مادية؟ ولقد علل لينين سبب استثناء الدين اليهودى من محاربته والضغط عليه، بأن الدين اليهودى فى نظره أمر ضرورى لحياة الشعب اليهودى المختار، ريثما ينال حقه بإنشاء دولته فى فلسطين، لأن تجريد اليهود من دينهم يساهم فى فقدان شخصيتهم اليهودية، ويؤدى إلى ذوبانهم فى شعوب الاتحاد السوفيتى. وهذا يغاير الهدف الذى أنشئت لأجله الشيوعية، وهو سيادة شعب الله المختار.

لقد أخفقت الشيوعية فى القضاء على الدين، ولم تفدها جميع الوسائل القسرية التى استخدمتها فى حربها ضده، لذا فقد اضطرت لغض الطرف بعض الشىء عن المتدينين.

وما إن انفتح الاتحاد السوفيتى على العالم العربى والإسلامى حتى عدل من سياسته تجاه الدين، خوف نفور المسلمين منه إن علموا عداءه للدين، فتظاهر بمظهر الحياد من الدين، وإن بقى معلناً رأيه بالإلحاد، فقد نصت المادة ٥٢ من دستور الاتحاد السوفيتى على ما يلى: إن حرية الاعتقاد لمواطنى الاتحاد السوفيتى مضمونة، أى لهم الحق فى اعتناق أى دين، أو عدم اعتناق

أى دين، وأداء الشعائر الدينية، أو القيام بالدعاية الإلحادية، وتمنع العداءات والأحقاد بسبب المعتقدات الدينية.

كما اشتملت المادة ١٢٢ من قانون الجنايات على «تحريم تلقين الأطفال الأحداث العقائد الدينية سواء فى مدارس الحكومة أو المدارس الخاصة أو المعاهد التعليمية المتخصصة». وجعلت كل مخالفة بهذا الشأن جريمة تستوجب الحبس الإصلاحى مع الأشغال الشاقة مدة لا تزيد على سنة.

كما وضعت المادة ٥٨ من قانون الجنايات: جميع المتعبدين تحت باب أعداء الثورة وأباحت لرجال الشرطة فى شتى الظروف السياسية أن يقتحموا بيوت هؤلاء المتعبدين ويتولوا أمورهم بطريقتهم الخاصة.

ولكى يضمن عدم تسلل المتدينين إلى قيادة الحزب فقد تقرر فى المؤتمر التاسع للحزب، وفى المادة الثالثة عشرة احترام الحزب لمشاعر المؤمنين، ولكنه قرر منع المؤمنين من الانضمام لصفوفه، وجعل نشر الإلحاد أحد واجباته الرئيسية عن مجلة «العربى» الكويتية شوال ١٤٠٤هـ.

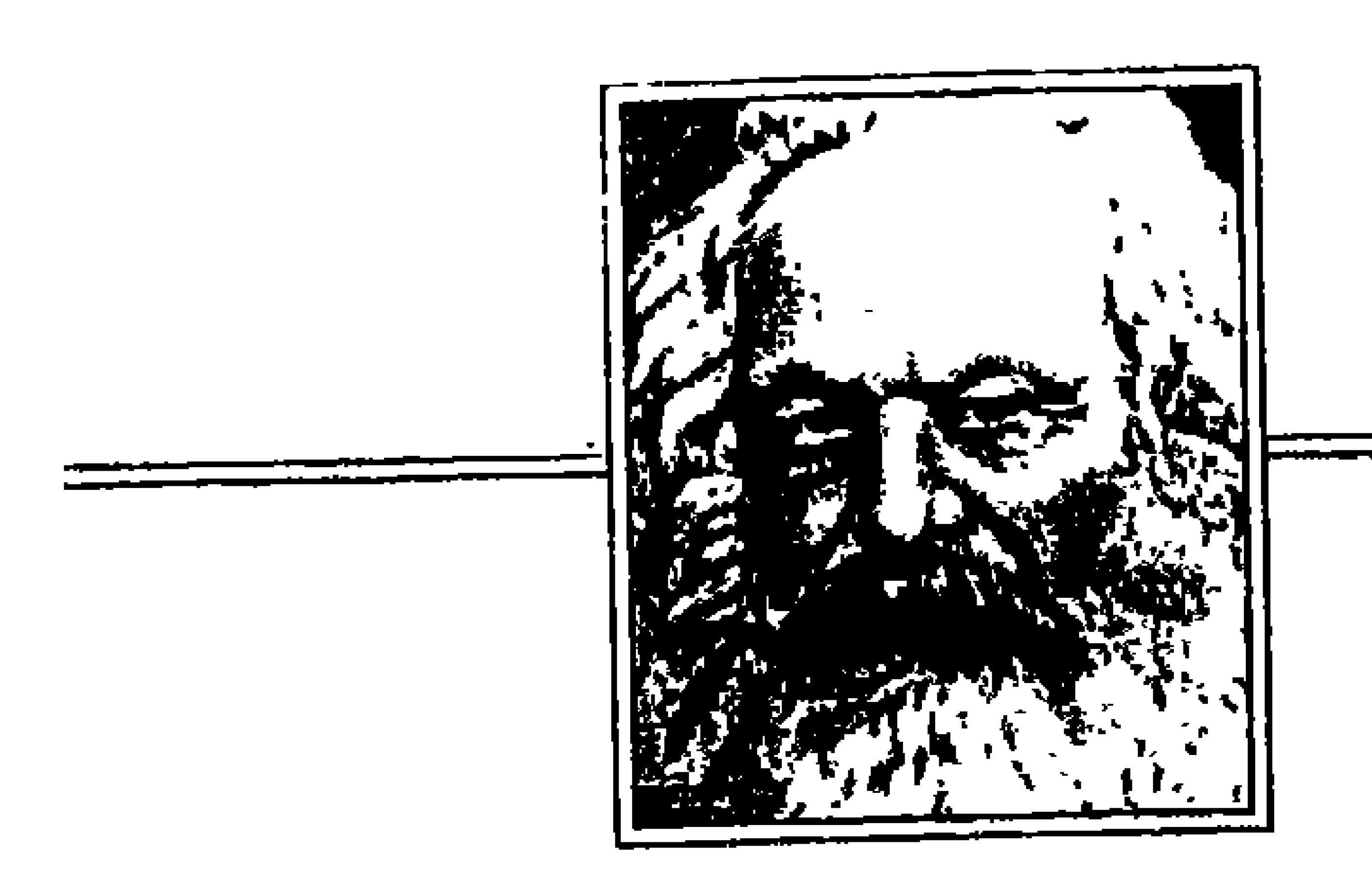
قال لينين عام ١٩٢٧م: إننا نقوم بالدعوة ضد الدين، لأننا أقوى من أن ينال منا خصومنا عن طريق التشهير بإلحادنا. فلقد كنا نحرص فى الماضى على عدم إعلان إلحادنا لأننا لم نكن أقوياء، أما الآن فإننا نعلن بصراحة أننا ملحدون، وأننا نرى فى الأديان خطراً على الحضارة الإنسانية، فالأديان أفيون مخدر.

لقد تناسى لينين أن الحضارة التى يخشى عليها من الدين هى التى انتقلت إلى أوروبا عن المتدينين الذين حضهم الإسلام على العلم، فنبغوا فى جميع العلوم، فى وقت كان يسود أوروبا التسلط والجهل. ولقد شهد بذلك الأعداء قبل الأصدقاء، أفلا يجدر بزعيم مثل لينين ألا يتجاهل الحقائق، فيعترف بأن الإسلام ليس كغيره من الأديان، وأنه دين يأمر بالعلم، ويعتبر المسلمين آثمين إن هم قصروا فى باب من أبوابه، وأنه دين لم يخدر الشعوب،

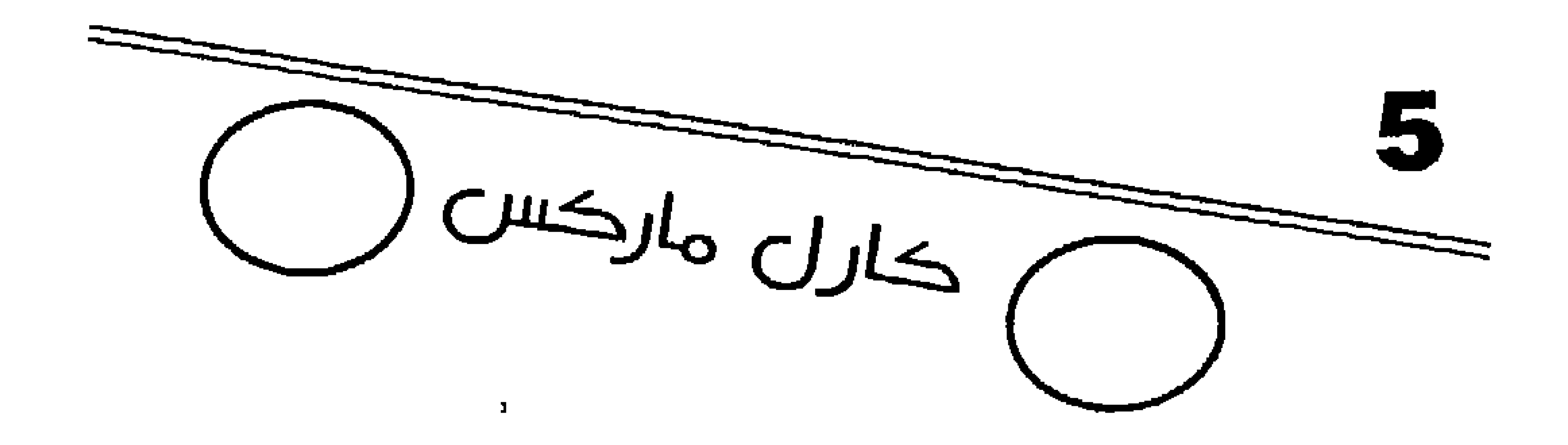
بل دعاها إلى التحرر، وعدم الرضا بالظلم، لقد قالها الخليفة العادل عمر بن الخطاب: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» وقالها أبسط مسلم منهم: لو رأينا فيك أعوجاجاً لقومناه بسيوفنا، فهل فى الشيوعيين من يجرؤ أن يقولها لرؤسائه؟

اللهم لا.. فمن المخدر للشعوب إذاً هل الإسلام أم الماركسية؟

■ ■ ■



موقف الماركسية من الإسلام



إذا كانت الماركسية تقف من جميع الأديان هذا الموقف العدائى الغريب فإنها تقف من الإسلام على وجه خاص موقفاً أشد عداوة وأكثر غرابة وأكبر ضراوة، وذلك لأنها تجد فى تعاليمه السماوية الخالدة الصخرة الصامدة التى تتحطم عليها كل موجات المد الماركسى، ولأنها تعلم أن الحكم الإسلامى يسير فى عكس الاتجاه الشيوعى تماماً، فإذا كان الإلحاد جزءاً من الماركسية فإن الإيمان بالله فى الإسلام هو الأساس الأول والقاعدة العريضة التى تشيد عليها الإيمان بالكتب السماوية والرسل واليوم الآخر والتى تقام عليها أسس الأخلاق الفاضلة التى جاء بها أنبياء السماء.

وإذا كان الحاكم الشيوعى هو الديكتاتور الأحمر الذى يعد على شعبه حركاته وسكناته ويعمل على نشر الإلحاد- فإن الحاكم المسلم رجل يؤمن بالله ويغرس الإيمان فى المجتمع يصلى لنفسه ويؤم الناس فى الصلاة ويخرج الزكاة ويشرف على جمعها من الآخرين ويعمل على وصولها إلى مستحقيها.

يصوم رمضان ويرقب حرمة الشهر فى أرجاء مجتمعه ثم إن الإسلام عقيدة فى القلب، وقانون فى الحكم، وقواعد فى الأخلاق، ونظام فى المجتمع، ورباط عام بين أتباعه وتقاليده تنظم البيت والشارع وتستغرق العمر من المهد إلى اللحد.

وقد فصل كتاب الإسلام- القرآن الكريم- والرسول- صلى الله عليه وسلم- الذى جاء به كيف يحيا المرء لنفسه ولأسرته ولمجتمعه ولأمته بل للإنسانية جمعاء ويعمل طوال حياته لربه أملاً فى رضاه وطمعاً فى مثوبته وخوفاً من عذابه ورهبة من ناره.

ولذلك فقد رأت الماركسية فى الإسلام عدوها الأول والأكبر، ومن ثم فقد شنت عليه حرباً شعواء لا هوادة فيها وقام كثير من مفكرى الشيوعية وحملة الأقلام فيها ووسائل الإعلام بها بتنظيم حملة تشويه للعقيدة الإسلامية فظهرت الكتب والمقالات التى تتعرض للإسلام بالتشويه ولعقيدته بالتجريح

«قد يمكن أن يكون لمحمد وجود تاريخى ولكن الخرافات قد عملت عملها فى تكوين هذه الشخصية وقلب حقيقتها قلبا تاما».(١)

ولقد كتب سميرنوف عضو المجمع العلمى ورئيس الدراسات الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى فى كتابه (تاريخ الإسلام فى روسيا) يقول:

إن المعلومات الأولية التى وصلتنا عن محمد سواء عن طريق المسلمين أو عن طريق البيزنطيين لا ترقى إلى أكثر من نهاية القرن الأول أو بدء القرن الثانى الهجرى، لأن القرآن لا يحوى معلومات راهنة عن حياة محمد، وهكذا فإن وجود محمد أمر مشكوك فيه تاريخياً، وليست قصة محمد إلا خرافة، وما الهجرة إلا تلك الخرافة التقليدية التى تروى فرار الأنبياء وهى تشبه فرار بوذا وموسى وعيسى، وليست قصة الانتقال العلوى والمعراج إلا ترديداً للخرافة التقليدية التى تروى عن الساحر السائح فى العالم الآخر.. وخرافة محمد بمجموعها هى خرافة الساحر المتألق وهى شبيهة بخرافات الشعوب القائلة بوجود الروح فى كل جسم حى.(٢)

■ ■ ■

---

(١) الإسلام فى نظر الشيوعية، ص٧٨.

(٢) المصدر السابق، ص١٥٩.

الماركسية والأخلاق

لا تؤمن الماركسية بشيء من الأخلاق التي تعارفت عليها الإنسانية قديماً وحافظت عليها وعملت على نشرها ودعم مبادئها الكريمة، وذلك مثل المحبة والتعاطف والتعاون والفضائل والمثل العالية والمبادئ السامية والأخلاق الفاضلة والسجايا الحميدة والغايات النبيلة.

فليس في تعاليم الماركسية إلا جميع الرذائل والمفاسد أو على حد تعبير «هارولد كوكس» في كتابه «الحرية الاقتصادية» حيث يقول:

«ليس في تعاليم الشيوعية شيء مثالي أو رفيع، إنها تستنصر جميع النزوات وجميع الرذائل كالحسد والغيرة والشهوة، هي تشجع أو على الأقل تجيز الإتلاف والشطط والخلاعة والإيذاء، إن غايتها السلب والنهب».

إن الماركسيين يكرهون أسمى الفضائل الإنسانية، إنهم يكرهون الرحمة ولا يعرفون الشفقة. وليس لديهم العطف وحب الجار معرفة يقول «لينين»:

«لا نحتاج إلى الحب، بل إننا أحوج إلى البغض والأحقاد، يجب علينا أن نتعلم البغض وأن نرضعه مع اللبن».(1)

ويقول كارل ماركس:

«الشيوعيون لا يبشرون بأي أخلاق على الاطلاق، إنهم لا يضعون للناس الأمر الخلقي أحبوا بعضكم البعض. لا تكونوا أنانيين... إلخ، بل بالعكس، إنهم يعرفون تماما أن الأنانية مثل التضحية هي في ظل ظروف معينة الشكل الضروري لصراع الفرد من أجل البقاء».

وتأمل معي الآن ما يقوله لسانهم الرسمي:

(1) أنور الجندي: الفكر العربي المعاصر، ص497.

«نحن نكره المسيحية والمسيحيين، وحتى أحسن المسيحيين خلقاً نعده شر أعدائنا، وهم يبشرون بحب الجيران والعطف والرحمة، وهذا يخالف مبادئنا، والحب المسيحى عقبة فى سبيل تقدم الثورة، فليسقط حبنا لجيراننا، فإن ما نريده هو الكراهية والعداوة، وحينذاك نستطيع غزو العالم».(١)

إن الماركسية تنكر الأخلاق والفضائل التى أمرت بها الأديان وجاء بها الوحى وحملت أعلامها مواكب الرسل الخير، وبيّن رسول الإسلام العظيم الهدف السامى من بعثته عندما قال (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

تنكر الماركسية هذا كله ولا تهتم إلا بنشر نوع غريب من الرذائل بين شبابها تجعله قاموس أخلاقها، وها هو «لينين» يحدد واجبات منظمات الشباب فى الخطاب الذى ألقاه بالمؤتمر الروسى لاتحاد الشباب الشيوعى فى ١٩٢٠/١٠/٢ حيث أكد- فى هذا الخطاب- كفر الشيوعية بالله (مصدر الأخلاق) وبيّن أن أخلاقهم تختلف عما هبط بها وحى السماء.

لقد بدأ لينين خطابه قائلاً:

«أيها الرفقاء، يسرنى أن أبحث معكم اليوم فى موضوع الواجبات الأساسية لاتحاد الشبان الشيوعيين، وأن أتوسع فأبحث بوجه عام كيف نكوّن منظمات الشبان فى جمهورية اشتراكية، ومما يزيد فى أهمية درس هذه المسائل أن الشباب هم فى الحقيقة الجيل الذى سيحمل العبء الأكبر فى إنشاء صرح المجتمع الشيوعى الذى لم يقم جيل العمال الحاضر بأكثر من وضع أساسه».

إلى أن قال:

«... وهنا يأتى السؤال الهام: كيف يكون تعليم الشيوعية وما الأساليب الخاصة التى يجب أن تمتاز بها طرقنا فى التعليم؟.

إن أول ما أرى إيضاحه لكم فى هذا الصدد هو دستور الأخلاق

(١) ص٣٤ الإسلام والشيوعية، د.عبدالحليم محمود.

الشيوعية.. قد تتساءلون. وهل هناك شيء يسمى الفضائل الشيوعية؟.

الجواب: نعم كثيراً ما اتهمت البورجوازية الشيوعيين بأنهم لا يعبؤون بالأخلاق، وأنهم ينكرون أى مبادئ لها، إن إلقاء الكلام بهذا الشكل إنما هو من قبيل ذر الرماد فى عيون العمال والفلاحين.

وإنما الحقيقة عن إنكارنا قواعد الأخلاق أننا ننكر ما تدعيه البرجوازية من أن مبادئ الأخلاق هى أوامر من عند الله فنحن بالطبع لا نؤمن بالله.

ونعلم تمام العلم أن القساوسة والملاك والبرجوازية نسبوا الأمور إلى هذا الاسم «الله» (نعوذ بالله مما قال) لتحقيق مآربهم الاستغلالية» ويواصل «لينين» خطابه فيقول:

«ونحن نشكر كل أخلاق لا يكون مصدرها المدارك الإنسانية ونجاهر بأنها جميعاً مجرد غش وخداع وكبت لعقول العمال والفلاحين.

وإن القوة التى تسيطر على أخلاقنا هى مصلحة طائفتنا فدستور أخلاقنا مستمد من حركة كفاحنا العمالية. لقد كان المجتمع القديم قائماً على أساس ظلم الملاك والرأسماليين للعمال والفلاحين، لذلك وجب علينا نسف هذا الأساس، ولكى يتسنى لنا ذلك لابد لنا من الاتحاد وأن نوجه هذا الاتحاد بأيدينا فإن الله لن يخلقه، إنما الذى يستطيع خلقه هم «البروليتاريا» وحدهم، وإذا كان كفاحنا الطائفى لا يزال قائماً، فواجبنا الأول هو أن نخضع لمستلزمات هذا الكفاح كل شيء عندنا، وفى ذلك أخلاقنا الشيوعية.

فالأخلاق عندنا هى أن نعمل كل ما يساعد على هدم المجتمع الاستغلالى القديم وجمع كل صفوف الأيادى العاملة حول البروليتاريا القائمة بإنشاء المجتمع الشيوعى الجديد.. يتكلم الناس أمامنا عن مبادئ الأخلاق. فنقول لهم إن الأخلاق عندنا معشر الشيوعيين ليست سوى النظام الموحد والتكتل اليقظ لمكافحة الاستغلاليين.

نحن لا نعتقد فى الأخلاق الأزلية. ونعد كل الأقاصيص الخرافية التى

ترمى إلى غرض أخلاقى قولا هراء، ولا نعرف الأخلاق إلا بصفتها عوناً للمجتمع على الرفع من مستواه والقضاء على كل عمل استغلالى.

لذلك لا تكون تربية النشء الشيوعى بإلقاء دروس الوعظ والخطب الأخلاقية بل بإشراكهم فى الميدان العملى القائم لتشييد وتدعيم صرح الشيوعية.(١)

إن الذى يحدد معايير الأخلاق وضوابط القيم إنما هو الإنسان الماركسى أو بعبارة أدق هو الحزب الشيوعى، وعلى ذلك فليس هناك أخلاق ثابتة ولا قيم مستقرة، فحركة المجتمع متطورة ومتغيرة فما يكون حسناً يمكن أن يكون شراً غداً، فليس هناك مثل عليا، ولا مصدر تستلهم منه المثل العليا، فالأخلاق- فى عرفهم- هى تلك التى ينشئها المجتمع لخدمة صالح الطبقة التى تهيمن على وسائل الثروة والإنتاج.

يقول صاحب كتاب «الشيوعية والإنسانية»:

مذهب الشيوعيين فى الأخلاق أن المجتمع ينشئ الأخلاق لخدمة مصالح الطبقة التى تملك زمام الثروة فيه وتسيطر على وسائل الإنتاج، وأن أبناء المجتمع لا يعيبون هذه الأخلاق مادامت وسائل الإنتاج ناجحة منتظمة ولو كانوا من ضحاياها.

وليس فى أصل الطبيعة البشرية ما يوصف بالخير أو بالشر إلا حين يرتبط بمصلحة الطبقة الغالبة، أو بما يحقق مصلحتها فليس لطبقة الأجراء الصعاليك إذن أن تستحسن شيئاً غير ما يوافق مقاصدها ولا أن تستهجن شيئاً غير ما يعوق تلك المقاصد وما عدا ذلك من عرف شائع فإنما هو من بقايا المجتمعات التى كانت تقوم على تسخير الطبقة الأجيرة واستغلال جهودها.(٢)

---

(١) محمد الغزالى: الإسلام فى وجه الزحف الأحمر، ص٤٤- ٤٦.

(٢) العقاد: الشيوعية والإنسانية، ص٢٢٩.

إن ماركس يضع القوة محل الرفق والعنف مكان الحب، إنه يقول:

(إن أهدافهم لا يمكن بلوغها وتحقيقها إلا بهدم كل النظام الاجتماعى التقليدى بالعنف والقوة).

وأخيراً فإننا مع الإمام الأكبر الدكتور عبدالحليم محمود عندما يقول:

«ومما لا شك فيه أن الأساليب الشيوعية تتخذ من أسسها «الغاية تبرر الوسيلة» وهذا وحده أعظم برهان على أن الانحطاط الخلقى عندهم شىء هام بل ومعترف به رسمياً وأنه القاعدة» (١). ومن ثم فإن الشيوعية تبارك كل أنواع الخداع والغش والاحتيال فى سبيل تحقيق المبادئ الشيوعية، يقول «لينين»: يجب على المناضل الشيوعى أن يتمرس بشتى ضروب الخداع والغش والتضليل، فالكفاح من أجل الشيوعية يبارك كل وسيلة تحقق الشيوعية.

يجب أن يكون مفهوماً أن الشيوعية غاية نبيلة، وأن تحقيق الغاية النبيلة يتطلب- فى كثير من الأحيان- استخدام وسائل غير نبيلة، ولهذا فإن الشيوعية تبارك شتى الوسائل المناهضة للأخلاق مادامت هذه الوسائل تساعد على تحقيق الشيوعية.(٢)

ولقد جاء فى كتاب «بروتوكولات حكماء صيهون» الذى يرسم السياسة العالمية اليهودية ما يأتى:

(يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق فى كل مكان، فتسهل سيطرتنا.. إن «فرويد» منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس، لكى لا يبقى فى نظر الشباب شىء مقدس، ويصبح همهم الأكبر هو إرواء غريزة الشباب وعندئذ تنهار أخلاقه).

لقد رتبنا نجاح «دارون» و«ماركس» و«نيتشه» بالترويج لآرائهم: وإن الأثر الهدام للأخلاق الذى تنشئه علومهم فى الفكر غير اليهودى واضح لنا بكل

(١) دكتور عبدالحليم محمود، الإسلام والشيوعية، ص٣٥.

(٢) ص٢٧-٢٨، حركات ومذاهب فى ميزان الإسلام لفتحى يكن، مؤسسة الرسالة.

تأكيد).(1)

= الشيوعية والأخلاق: ورد فى كتاب انتى دوهرغ رأى ماركس فى الأخلاق، إذ قال: إننا نرفض كل محاولة لإلزامنا بأية عقيدة أخلاقية مهما كانت، على اعتبارها شريعة أخلاقية أبدية ثابتة، ويقول: إنا ننادى بأن سائر النظريات الأخلاقية قد كانت حتى هذا التاريخ نتاجاً لأوضاع المجتمع الاقتصادية السائدة فى زمنها، ويقول: إن دين المجتمع الإقطاعى قام بتغيير الأخلاق السائدة، وبوضع الأسس لها إذ تصور مطالبها وحدودها التى تعبر فى الواقع عن مصالح المستغلين كأوامر إلهية. والأخلاق الإقطاعية التى ارتكزت على الدين ساعدت على كبح جماح جماهير الفلاحين المسحوقة.

لقد خلط الشيوعيون بين الأخلاق الجاهلية السائدة، وبين الأخلاق الربانية السامية التى حرصت- قبل كل شىء- على احترام إنسانية الإنسان، فعملت على تحريره من كل ما يمس كرامته، وحقه فى العيش الحر الكريم، أما أخلاق الشيوعيين فنستمع إليهم يصفونها بأنفسهم، يقول لينين فى نفس الكتاب ص٤٧١ ما يلى: إن الماركسية تنتقد دونما تحفظ محاولات علماء الاجتماع البرجوازيين لجعل الاشتراكية قائمة على أساس أخلاقى «كالعدالة والحق المطلق» وبهذا المعنى فى الواقع ليس فى الماركسية مثقال ذرة من الأخلاق، والاشتراكية لا تحتاج إلى أساس أخلاقى وإنما إلى أساس علمى.

ويقول إنجلز: إن الأخلاق التى نؤمن بها هى كل عمل يؤدى إلى انتصار مبادئنا مهما كان هذا العمل منافياً للأخلاق المعمول بها. ويقول: يجب على المناضل الشيوعى أن يتمرس بشتى ضروب الخداع والغش والتضليل، فالكفاح من أجل الشيوعية يبارك كل وسيلة تحقق الشيوعية. ويقول: إذا لم يكن المناضل الشيوعى قادراً على أن يغير أخلاقه وسلوكه وفقاً للظروف مهما تطلب من كذب وتضليل وخداع فإنه لن يكون مناضلاً ثورياً حقيقياً.

---

(1) الإنسان بين المادية والإسلام، محمد قطب، ص٢٤.

فى عام ١٩٥٩ حينما سيطر الشيوعيون على الحكم فى العراق سيَّر الحزب الشيوعى العراقى مظاهرة صاخبة تتصدرها عضوات الحزب وهن يهتفن فى شوارع بغداد «ماكو مهر، بس هالشهر، والقاضى نذبه بالنهر» أى بعد شهر ستلغى القوانين الإسلامية فى الزواج وتأخذ المرأة حريتها فى الزواج والطلاق دون ضوابط، عن مجلة «المجتمع» عدد ٨٣٢ ص٥٠. والحق أن فساد الأخلاق دعامة قوية فى تسلط الحزب الشيوعى على الشعب، فإذا ضاعت القيم استطاعت الدولة شراء الضمائر، والاستعانة بمن لا خلاق لهم على الظلم والإرهاب، والتنكيل بالخصوم، فتستعين بالأخ على أخيه وأبيه، وتحكم سيطرتها على الشعب المغلوب على أمره، ورحم الله الشاعر إذ يقول:

إذا قلّ ماء الوجه قل حياؤه ولا خير فى وجهٍ إذا قل ماؤه

ويقول ﷺ: «إذ لم تستحى فاصنع ما شئت».

■ ■ ■

والوئام، ولذلك فإن كل الفلسفات والمجتمعات تحرص على توثيق العلاقات بين أفراد الأسرة تلك التى تنعكس آثارها على المجتمع سلباً أو إيجاباً.

ولكن الماركسية لها فلسفة خاصة حول هذا النظام الأسرى فالمجتمع الماركسى يدفع النساء للخروج إلى الحياة العامة مع الرجال فى أماكن جماعية أشبه بالكيبوتز الإسرائيلى، وفى هذه الأماكن تمارس عمليات التربية والترفيه والتثقيف بصورة جماعية خارج محيط الأسرة، الأمر الذى يهدم الإطار الأساسى للحياة العائلية، ويقضى على الألفة والمودة الخاصة التى تنشأ بين الزوج وزوجته هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فليس للزواج مظهره المقدس، وإنما يكفى فى إتمام هذا الزواج أن يتقدم من يرغب فيه إلى الموظف المختص للحصول على استمارة خاصة يدون فيها اسمه واسم من يرغب فى معاشرتها دون شاهدين ودون إقامة حفل ترفيهى أو دينى، بمعنى أن هذا الزواج لا يقوم على أساس دينى كما تباح المعاشرة الجنسية بين الرجال والنساء دون عقد زواج وترعى الدولة الأطفال الذين يولدون من هذه المعاشرة غير المشروعة، كما يبيح المجتمع الشيوعى الإجهاض، بحجة أن الشخص حر فى بدنه وله أن يفعل ما يشاء.[1]

وهكذا فإن الحياة الأسرية فى هذا المجتمع الشيوعى تقوم على أساس التفكك وإنعدام الروابط الأسرية ونسف كل حب ينشأ بين الأفراد. يقول أحد الشيوعيين:

«يجب أن نُغيِّر العائلة بالمبدأ الشيوعى الذى ينطفئ فيه حب الآباء لأبنائهم».

وينظر المجتمع الماركسى للمرأة على أنها كالرجل آلة فى عملية الإنتاج وحتى تتفرغ لهذا الإنتاج فإن الحكومة الشيوعية تحرمها من الأطفال وتحرم الأطفال فى الوقت نفسه من حنان وعطف أمهاتهم وآبائهم وذلك بوضعهم فى مؤسسات شيوعية ضماناً لتنشئتهم على مبادئ الشيوعية لأنهم ملك الدولة.

---

(١) ص٣٥- ٣٦ أسس المجتمع الإسلامى والمجتمع الشيوعى، د.زيدان عبدالباقى ، دار المعارف بمصر.

يقول لينين:

«أعطونى طفلاً دون السابعة من عمره وخذوه شيوعياً ممتازاً إلى الأبد».

وكذلك فإن روابط الزواج والأمومة والأبوة، والبنوة توزن بموازين جديدة غير ما ألفت الأمم فى تكوين الأسرة وحضانة الأولاد وغرس التكافل والحنان بين أفرادها. ولقد قيل للشيوعيين على عهد «ماركس»: إنكم تريدون القضاء على الأسرة وهدم أقدس العلاقات العائلية بإحلال تربية المجتمع للأطفال محل تربية المنزل.

وكان جواب ماركس هو:

إن البرجوازيين يتهموننا معشر الشيوعيين بأننا نريد شيوع المرأة.

إن البرجوازى يرى فى زوجته مجرد أداة للإنتاج، وهو يسمع إننا سنحول أدوات الإنتاج إلى ملكية شائعة، فيصل بالطبع إلى نتيجة واحدة بالنسبة للنساء، وهى أنه سيسرى عليهن أيضاً نظام الشيوع، ولا يخطر له ببال أننا نريد أن نحول دون جعل النساء مجرد أدوات للإنتاج.

أما فيما عدا ذلك فمن أكبر المضحكات أن يثير سخط البرجوازية ما يزعمونه من أننا نريد إعلان شيوع المرأة رسمياً. فإن الشيوعيين لا حاجة لهم بابتداع شيوع المرأة، لأن هذا الشيوع حاصل فعلاً من مدد مديدة.

إذ إن البرجوازيين لا يقنعون بوجود زوجات العمال وبناتهم تحت تصرفهم فضلاً عما هو أمامهم من ميدان البغاء الرسمى، بل يجدون سروراً عظيماً فى إغواء بعضهم لزوجات بعض فنظام زواجهم إنما هو تزويج النساء للجماعات لا للأفراد وغاية ما يمكنهم اتهامنا به أننا نريد أن نستبدل بشيوع المرأة المستقر وراء النفاق شيوعاً علنياً مشروعاً.(١)

وهكذا يرى ماركس «شيوعاً علنياً مشروعاً».

---

(١) ص٤٢- ٤٣ الإسلام فى وجه الزحف الأحمر، محمد الغزالى.

ولكن ماذا نرجو من رجل يجحد بالله؟ إن تلك الانحرافات الأخلاقية التى ترتبط بالنواحى الجنسية فى المجتمع الشيوعى ترجع إلى عدم الاعتقاد فى الثواب والعقاب فى الآخرة على أساس أن الثواب والعقاب عملية ترتبط بالحياة الدنيوية فقط.

- الشيوعية والأسرة: يقول جان فريغيل فى كتابه «المرأة والاشتراكية»: لا تشكل الأسرة كياناً اجتماعياً خالداً. لقد طرأ عليها تبدلات عديدة عبر القرون، وهذا التطور يتحدد فى التحليل الأخير بالعامل الاقتصادى.

ويقول إنجلز فى كتابه «أصل الأسرة ص٥٦»: مرت الأسرة بأربع مراحل:

أ- أسرة الجيل: وفيها كانت العلاقات الجنسية مباحة بين أبناء الجيل الآباء والبنات والإخوة والأخوات، «وهذا لا دليل عليه» لأن إنجلز نفسه يقول: وإن أسرة الجيل هذه انقرضت، وحتى أحسن الشعوب التى يتحدث عنها التاريخ لا تمدنا بأمثلة يمكن التثبت منها.

(إذ إنه يبنى نظريته على وهم فلعله ضلل الآخرين).

ب- المرحلة الثانية يقول فى صفحة ٥٣: ثم حصل التقدم الثانى بحرمان الإخوة والأخوات من العلاقات الجنسية المتبادلة وبالتدريج. وفى جميع أشكال الأسرة لم يكن الوالد يُعرف معرفة أكيدة، أما الوالدة فتعرف بالتأكيد.

جـ- ثم كانت المرحلة الثالثة التى يعيش فيها الرجل مع المرأة الواحدة، وإن تعدد الزوجات والخيانة الزوجية تظل من امتيازات الزوج لأسباب اقتصادية.

د- ثم تأتى مرحلة الوحدانية: التى تقوم على سيطرة الرجل، وهدفها إنتاج الأولاد، ولابد من تحديد نسبهم لكى ينالوا حقهم من الإرث.

أما الأسرة الشيوعية التى ترنو إليها الماركسية فيحددها إنجلز فى الصفحة ٥١ من كتابه حيث يقول: إن العلاقات الجنسية ستصبح مسألة خاصة لا تعنى إلا الأشخاص المعينين، والمجتمع لن يتدخل فيها، وهذا سيكون

ممكناً بفضل إلغاء الملكية الخاصة، وبفضل تربية الأولاد على حساب الدولة، وبذلك ينخفض القلق الذى يستحوذ على قلب الفتاة جراء العواقب التى تعوقها عن حرية الوصال الجنسى شيئاً فشيئاً، ومن ثم لنشوء رأى عام أكثر تساهلاً فيما يتعلق بشرف العذارى وعار النساء.

يقول لينين فى عام ١٩٢٢: نحن لا نؤمن بالأفكار المثالية عن الأسرة التى تنادى بجعل الأسرة ذات كيان خاص له استقلاله. نحن لا نؤمن بهذه المثالية التى تشجع على جعل الوطن مجموعة من الأسرات المستقلة.

إن الأسرة فى نظرنا ليست سوى أفراد مستقلين، نحدد لكل منهم دوره فى المجتمع.

وفى عام ١٩٢٨ قال ستالين: دعونى أذكر لكم بصراحة أنه من الخطر على حياتنا السياسية تشجيع ذلك المفهوم الخاطئ للأسرة، وأقصد بذلك الآراء القائلة بأن هناك ما يسمى الولاء للأسرة، فالولاء الوحيد المسموح به فى مجتمعنا هو الولاء للدولة.

وفى كتاب مختارات ماركس وإنجلز جـ٣ ص٢٧٠ النص التالى: «مع تحول وسائل الإنتاج إلى ملكية عامة اجتماعية، لا تبقى العائلة، وتغدو العناية بالأطفال وتربيتهم من شئون المجتمع، فإن المجتمع سيعنى بالقدر ذاته بجميع الأطفال سواء كانوا شرعيين أو غير شرعيين. وبفضل هذا يزول هم العواقب الذى يشكل فى الوقت الحاضر أكبر سبب اجتماعى أخلاقى اقتصادى يمنع الفتاة من الاستسلام بلا تحفظ للرجل الذى تحبه. ألن يكون هذا سبباً كافياً لكى نقوم تدريجياً بمزيد من الحرية فى العلاقات الجنسية ولكى يتكون بالتالى رأى عام أكثر تساهلاً حيال شرف العذارى وحشمة النساء».

يقول ماركس وإنجلز فى كتاب المرأة والاشتراكية ص٥١ ما يلى: ليس الزواج البرجوازى فى الحقيقة والواقع سوى إشاعة النساء المتزوجات (يعنى لأزواجهن) فقصارى ما يمكن أن يتهم به الشيوعيون إذن هو أنهم يريدون كما

يزعم: الاستعاضة عن إشاعة النساء المستترة بالرياء والمغطاة بالمداحاة بإشاع صريحة رسمية، (عن البيان الشيوعى دار التقدم ص٦٤).

يقول إنجلز فى كتاب مختارات ماركس وإنجلز جـ٣ ص١٧٩ ما يلى: (الزوجة لا تختلف عن البغية الممتازة الذكاء والأناقة إلا بكونها لا تؤجر جسدها بالقطعة كما تؤجر العاملة عملها بل تبيعه دفعة واحدة وإلى الأبد كالعبدة).

بعد هذا التخبط الذى زعموه فى تطور الأسرة، يريدون أن يجردوا الأسرة من جميع القيم والروابط، فلا طاعة، ولا ولاء، ولا تدخل لأب أو أم فى سلوك أبنائهم وبناتهم، إنما الولاء الوحيد للدولة، فإذا تدخل الأب فى سلوك ابنته الشائن تدخلت الدولة فى الانتصار لها، لأن الجميع خراف فى حظيرة واحدة هى الدولة، والولاء الوحيد فيها للراعى وهو الحزب ممثل الدولة، مادامت الدولة تطعمهم وتكسوهم لقاء عملهم معها، فهى صاحب الولاء دون غيرها، فإذا انقطت الروابط الأسرية، وأطلق الأولاد العنان لشهواتهم وأهوائهم ونزواتهم، سهل على الدولة السيطرة عليهم، وتوجههم فى الخط الذى يضمن سيادتها وتسلطها.

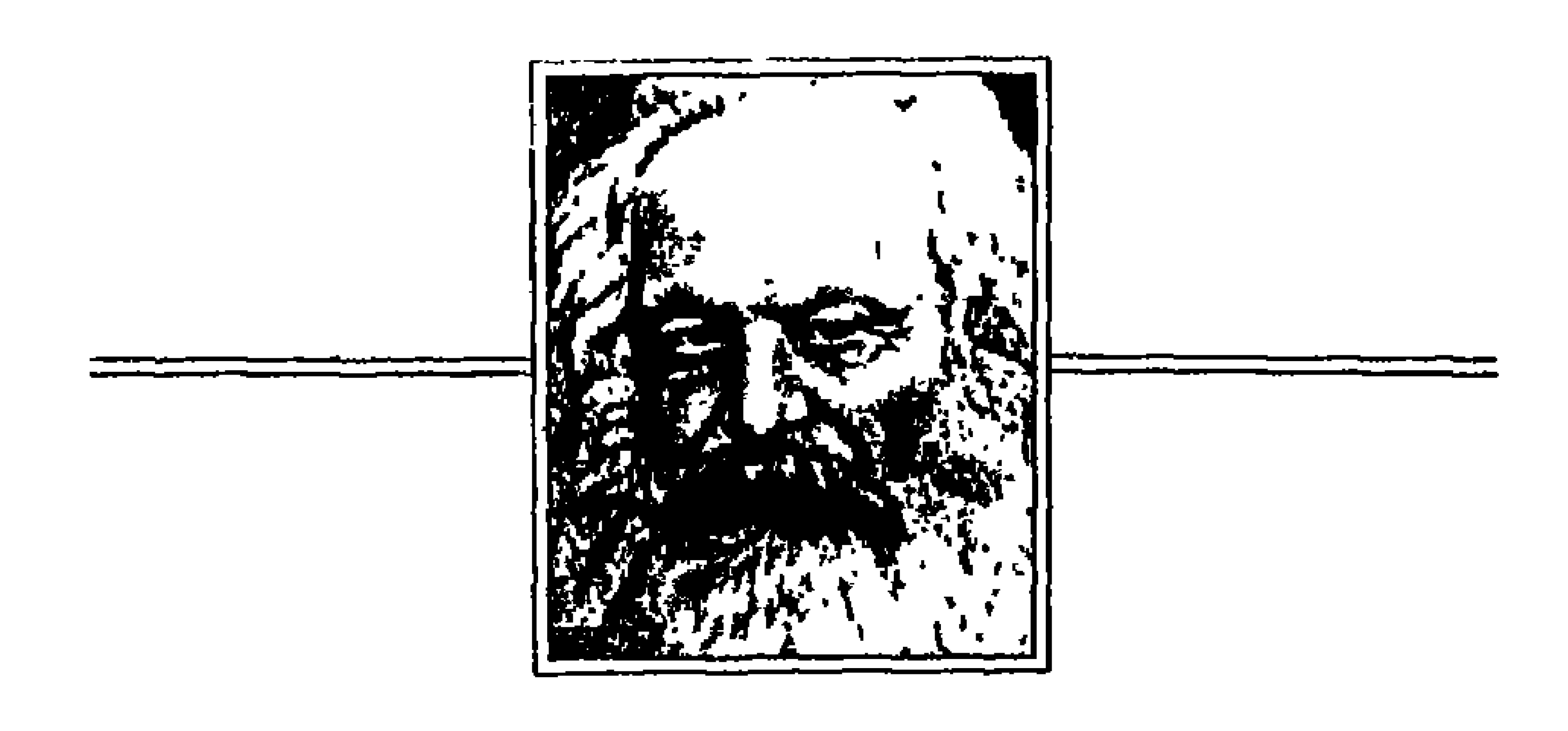
■ ■ ■

الماركسية والحرية

كانت روسيا قبل الانقلاب الشيوعى تعانى من تسلط القياصرة وفى عام ١٩١٤ تظاهر عمال بطرسبرج ضد الظلم والحرمان فأمر آخر القياصرة نيقولا الثانى الجيش بالقضاء على إضراب العمال ولكن الجيش انضم إلى الشعب والعمال الذين لم يعودوا يحتملون فساد القيصر راسبوتين المتسلط عليه، وتحرك الشعب بعد هزيمة الحرب العالمية الأولى فقضى على راسبوتين وأجبر نيقولا الثانى على التنازل عن العرش وتشكلت حكومة مؤقتة من عشرة أعضاء ستة منهم من اليهود ولا أظن ذلك على سبيل الصدفة، وفى عام ١٩١٧ أى بعد الإطاحة بالقيصر بثلاث سنوات أرادت ألمانيا أن تشغل روسيا عن الحرب فأرسلت إليها لينين وأصحابه سراً ضمن مركبة شحن مغلقة ليثيروا فيها الاضطراب ضد السلطة القائمة. دخل لينين روسيا فوجد الكمثرى ناضجة- على حد قول نابليون- ونادى لينين بالشيوعية والسلام والمساواة فاستقطب حوله العمال وأعضاء المجلس الحاكم واستطاع أن يقود الثورة البلشفية فأعلن تأميم البنوك والأراضى والمصانع كما تمكن بالبطش والإرهاب من أن يقضى على خصومه وأن يمسك بزمام الأمور، وخيفة أن تتحرك الولايات الإسلامية المجاورة على الثورة البلشفية إن كشفت عداءها للدين- حاول لينين خداعهم فأعلن نداءه المشهور الذى دعاهم فيه إلى مساندته ضد الاستعمار الغربى ووعدهم فيه بمنحهم الحكم الذاتى وما إن استقرت الأمور وتمت السيطرة الكاملة للشيوعيين هاجموا الولايات الإسلامية بشراسة حيث احتل الجيش الأحمر بلادهم بقيادة بودبتى بحجة القضاء على أوكار الرجعية، فذبح وشرد من المسلمين الملايين حتى دانت له بلادهم وقام ستالين من بعده بمذابح مماثلة حيث استطاع القضاء نهائياً على سبعة أقوام وألغى أسماءهم من دائرة

المعارف وهم: الكريمين- التتار- الكالموك- الكرك الشيشن- الكولات- الأنجش. كان ذلك عام ١٩٤٤ بحيلة قذرة على يد السفاح ستالين بعد انتهاء الحرب العالمية، حيث دخلت قطع الجيش العائدة من الحرب إلى تلك المقاطعات بحجة الاستراحة فامتلأت المدارس والمشافى والحمامات وفى ٢٣ فبراير- أى بعد نحو شهرين- أقاموا مهرجانات فى الميادين العامة فى المدن الكبرى والصغرى دعوا فيها الشعب لمشاهدة هذه الاحتفالات ووزعوا عليهم الهدايا والحلوى، وفجأة أعلن مكبر الصوت أمر القبض على هؤلاء أبناء البلاد والمشاركين فى الاحتفالات وسيقوا فى طوابير إلى مركبات قطارات الشحن التى كانت بانتظارهم واتجهت بهم إلى أواسط آسيا دون طعام ولا كساء وأعدموا منهم الوطنيين فوراً والذى وصل من طويلى العمر بعد خمسة عشر يوماً قضاها فى الجوع والبرد عاش فى منفاه ثم تتبع الروس مدارسهم ومساجدهم فدمروها كما أجبروهم على استبدال أسمائهم وليس عجيباً ألا تشير الصحافة إلى هذه الفاجعة من قريب ولا من بعيد.

وكذا فعلوا بشعب جرمان السفلى فقد تم القضاء عليهم ١٩٤١ حين ألقت إليهم الطائرات كُتباً ومنشورات فخرج الناس لجمعها عندها فتحت عليهم أفواه الرشاشات فقضوا على أعداد هائلة ثم أعدموا الكثيرين- حتى الذين حاربوا فى الجيش السوفيتى ونالوا الأوسمة والرتب- وبذلك تم القضاء نهائياً عليهم.. أما فى تشيكوسلوفاكيا فما إن فكر الحزب الحاكم بمنح شىء من الحرية حتى فوجئ بالجيش الأحمر يقوم بإنزال مظلى فى بلادهم عام ١٩٦٨ والطائرة العمودية تنزل الأسلحة الثقيلة، فخيم الرعب على البلاد وتراجع المسئولون عن آرائهم وأقوا على تبعيتهم بل على عبوديتهم للسوفييت، هذا هو شأن السوفييت والشيوعيين مع أبناء العقائد المغايرة عامة ومع المسلمين خاصة وهذا هو مفهوم الحرية الفكرية عندهم، لقد طرحوا شعارها يوم أن حكموا بعض بلادنا بقولهم «لا حرية لأعداء الشعب» وأعداء الشعب بنظرهم هم الذين لا يؤمنون بأفكارهم مهما كثر عددهم.. فهل من مدكر.



الماركسية واليهودية الصهيونية



مؤسسو الفكرة الشيوعية: جاء فى كتاب (الشيوعية والصهيونية توءمان) لإبراهيم الحلو صفحة ١٧ ما يلى: المعروف أن هناك من سبق هرتزل فى وضع الأسس الأولية للفلسفة الصهيونية، ونعنى به الصهيونى العريق- موسى هس- صاحب «روما والقدس» والذى وضعه عام ١٨٦٢م. واقترح فيه دولة يهودية فى فلسطين بمساعدة فرنسا. ويقول: ولاشك أن موسى هس سبق اليهودى ماركس فى نظرياته الاشتراكية العامة. ويقول فى صفحة ١٨: يقول الحاخام لويس برونز فى كتابه أغرب من الخيال: إن التاريخ اليهودى قلما يذكر أن كارل ماركس هو حفيد الحاخام مردخام ماركس.

كان فى روحه وعمله أشد إخلاصاً لإسرائيل من الذين يتشدقون بذلك.

وفى مقدمة كتاب «الصهيونية والشيوعية» تأليف فرانك يقول: أما الحقيقة الراهنة فهى أن الصهيونية والشيوعية صنوان، منبعهما واحد، وغايتهما واحدة، وجوهرهما واحد، والفئة التى تقوم عليهما من وراء ستار واحدة، وما اختلافهما فى الظاهر سوى ترتيب موقت اقتضاه تأمين النجاح فى السعى إلى الغاية الواحدة، حتى إذا تحققت الثقة بالنجاح الكامل اتحدتا معاً للسيطرة على العالم.

جاء فى كتاب (الشيوعية والصهيونية توءمان) ص٢٤ ما يلى: وتاريخ الثورة الشيوعية يؤكد أن زعماء الحزب الشيوعى الذين أشرفوا على الثورة وأعلنوها وقادوها ثم حكموا روسيا كانوا خمسة هم: لينين وزينوفيف وكاميتيف وتروتسكى وباكوف سفرولوف. كانوا جميعهم من اليهود ما عدا لينين، كان متزوجاً من يهودية، إلا أن وايزمان أول رئيس لدولة إسرائيل يؤكد فى مذكراته أن لينين يهودى النسب، صهيونى الفكر والمنطلق، وهو بحق الزعيم الفعال فى قيادة الحركة الشيوعية، ويدلل على يهودية لينين بقوله: إنه كان يحضر المؤتمرات التى كان يعقدها حكماء صهيون فى سويسرا، والتى كان يحضرها وايزمان نفسه، وإلا فما هو مبرر حضوره إن لم يكن يهودياً؟ كما ورد فى صفحة ٢٨.

إن عدد أعضاء اللجنة المركزية الشيوعية فى بطرسبورج فى بداية الحكم الشيوعى ٣٨٨ عضوا منهم ٣٧١ يهودياً و١٦ روسياً، وزنجى واحد.

وقد أعلن المليونير الصهيونى اليهودى يعقوب شيف عام ١٩١٧ على رؤوس الأشهاد: أن الثورة الشيوعية فى روسيا قد نجحت بفضل مساعداته المالية.

يقول إلياس مرقس أحد قادة الحزب الشيوعى السورى فى كتابه عن تاريخ الأحزاب الشيوعية فى الوطن العربى وفى صفحة ١٤- ١٥ ما يلى: وإن عاملاً آخر أثر على وضع الحركة الشيوعية فى المنطقة العربية هو أنها نشأت أول ما نشأت على يد أفراد من الأقليات القومية أو العنصرية أو الطائفية وفى أوساط هذه الأقليات نشأت الشيوعية.

يقول الدكتور سعدون حمادى فى كتابه (نحن والشيوعية) ص١٨- ١٩ هناك ملاحظة أخرى هى أن الشيوعية وجدت مجالاً أوسع فى وسط الأقليات الدينية والعنصرية، وعلى وجه التخصيص انتشرت بين العناصر الشعوبية المعادية للعرب، كما أن العلاقات الوطيدة بين الحزب الشيوعى العراقى والجالية اليهودية قبل الهجرة لإسرائيل مثال بارز على ذلك.

ولقد كان اليهود من أبرز قادة الحزب الشيوعى العراقى أمثال: صديق يهوذا- وساسون دلال- ويعقوب كوحجان وغيرهم. أما فى مصر فقد تشكلت حلقات الماركسية الأولى من قيادات غير إسلامية تقريباً أمثال: روزنتال وأنطون وسلامة موسى. بمشاركة عدد من موفدى الكومنترن وجلّهم من اليهود الروس أمثال: أفيجدون وناداب، وقد ضبطت فى بعض قضايا الشيوعية فى مصر أوراق وتقارير ومكاتبات تثبت أن النشاط الشيوعى فى مصر يدار من الخارج. فقد عثر مع ناحومى كانيل اليهودية التى قبض عليها فى ١٩٥٣/١١/٣ تقارير شيوعية واردة من الخارج، وبعضها من إسرائيل وفى ١٠/١٤ عثر مع زميلها جوزف دافيد أزمو الإسرائيلى أيضاً على كثير من التقارير الواردة من هنرى كوربيل إلى الشيوعية المصرية.

وفى عام ١٩٢٥ أسس الأرمنيان أرتين مادوبان وهيكازن بوبا جيان الحزب الشيوعى اللبنانى السورى باسم عصبة سبارتاكوس. وفى عام ١٩٢٥ أعلن الحزب تنظيم نفسه وانتخب لجنة مركزية من أرتين مادوبان وهيكازن بوبا جيان ويوسف يزبك وفؤاد الشمالى وباكوب تيبر اليهودى الروسى الذى قدم من إسرائيل.

وفى عام ١٩٣٠ انتسب خالد بكداش- سورى الجنسية كردى الأصل- إلى الحزب الشيوعى ورشحه تخمان لتيفنكس للدراسة فى معهد الشيوعيين الشرفيين كى يتعلم فيه مبادئ الشيوعية والولاء لروسيا وعاد سكرتيراً للحزب يساعده فرج الله الحلو ونيقولا شادى معلنين تبعية الحزب لموسكو مباشرة. وولاءه للكريملن.

■ ■ ■

الشيوعية

التعريف:

الشيوعية مذهب فكرى يقوم على الإلحاد وأن المادة هى أساس كل شىء ويفسر التاريخ بصراع الطبقات وبالعامل الاقتصادى. ظهرت فى ألمانيا على يد ماركس وإنجلز، وتجسدت فى الثورة البلشفية التى ظهرت فى روسيا سنة ١٩١٧م بتخطيط من اليهود، وتوسعت على حساب غيرها بالحديد والنار. وقد تضرر المسلمون منها كثيراً، وهناك شعوب محيت بسببها من التاريخ، ولكن الشيوعية أصبحت الآن فى ذمة التاريخ، بعد أن تخلى عنها الاتحاد السوفيتى، الذى تفكك بدوره إلى دول مستقلة، تخلت كلها عن الماركسية، واعتبرتها نظرية غير قابلة للتطبيق.

التأسيس وأبرز الشخصيات:

● وضعت أسسها الفكرية النظرية على يد كارل ماركس اليهودى الألمانى ١٨١٨- ١٨٨٣م وهو حفيد الحاخام اليهودى المعروف مردخاى ماركس، وكارل ماركس شخص قصير النظر متقلب المزاج، حاقد على المجتمع، مادى النزعة، ومن مؤلفاته:

- «البيان الشيوعى» الذى صدر سنة ١٨٤٨م.

- «رأس المال» ظهر سنة ١٨٦٧م.

● ساعده فى التنظير للمذهب فردريك إنجلز ١٨٢٠- ١٨٩٥م وهو صديق كارل ماركس الحميم وقد ساعده فى نشر المذهب كما أنه ظل ينفق على ماركس وعائلته حتى مات، ومن مؤلفاته:

- أصل الأسرة.

- الثنائية فى الطبيعة.

- الاشتراكية الخرافية والاشتراكية العلمية.

● لينين: واسمه الحقيقى: فلاديمير أليتش بوليانوف، وهو قائد الثورة البلشفية الدامية فى روسيا ١٩١٧م وديكتاتورها المرهوب، وهو قاسى القلب، مستبد برأيه، حاقد على البشرية، ولد سنة ١٨٧٠م، ومات سنة ١٩٢٤م، وهناك دراسات تقول إن لينين يهودى الأصل، وكان يحمل اسماً يهودياً، ثم تسمى باسمه الروسى الذى عرف به مثله مثل تروتسكى فى ذلك.

- ولينين هو الذى وضع الشيوعية موضع التنفيذ وله كتب كثيرة وخطب ونشرات أهمها ما جمع فى ما يسمى مجموعات المؤلفات الكبرى.

● ستالين: واسمه الحقيقى جوزيف فاديونوفتش زوجا شفلى ١٨٧٩-١٩٥٤م وهو سكرتير الحزب الشيوعى ورئيسه بعد لينين، اشتهر بالقسوة والجبروت والطغيان والديكتاتورية وشدة الإصرار على رأيه، يعتمد فى تصفية خصومه على القتل والنفى، كما أثبتت تصرفاته أنه مستعد للتضحية بالشعب كله فى سبيل شخصه. وقد ناقشته زوجته مرة فقتلها.

● تروتسكى: ولد سنة ١٨٧٩م واغتيل ١٩٤٠م بتدبير من ستالين، وهو يهودى واسمه الحقيقى بروشتاين. له مكانة مهمة فى الحزب وقد تولى الشئون الخارجية بعد الثورة ثم أسندت إليه شئون الحزب.. ثم فصل من الحزب بتهمة العمل ضد مصلحة الحزب ليخلو الجو لستالين الذى دبر اغتياله للخلاص منه نهائياً.

الأفكار والمعتقدات:

● إنكار وجود الله تعالى وكل الغيبيات والقول إن المادة هى أساس كل شىء وشعارهم: نؤمن بثلاثة: ماركس ولينين وستالين، ونكفر بثلاثة: الله، الدين، الملكية الخاصة، عليهم من الله ما يستحقون.

● فسروا تاريخ البشرية بالصراع بين البرجوازية والبروليتاريا «الرأسماليين والفقراء» وينتهى هذا الصراع حسب زعمهم بديكتاتورية البروليتاريا.

● يحاربون الأديان ويعتبرونها وسيلة لتخدير الشعوب وخادماً للرأسمالية والإمبريالية والاستغلال، مستثنين من ذلك اليهودية لأن اليهود شعب مظلوم يحتاج إلى دينه ليستعيد حقوقه المغتصبة!

● يحاربون الملكية الفردية ويقولون بشيوعية الأموال وإلغاء الوراثة.

● تتركز اهتماماتهم فى كل ما يتعلق بالمادة وأساليب الإنتاج.

● إن كل تغيير فى العالم فى نظرهم إنما هو نتيجة حتمية لتغيير وسائل الإنتاج وإن الفكر والحضارة والثقافة هى وليدة التطور الاقتصادى.

● يقولون إن الأخلاق نسبية وهى انعكاس لآلة الإنتاج.

● يحكمون الشعوب بالحديد والنار ولا مجال لإعمال الفكر، والغاية عندهم تبرر الوسيلة.

● يعتقدون بأنه لا آخرة ولا عقاب ولا ثواب فى غير هذه الحياة الدنيا.

● يؤمنون بأزلية المادة وأن العوامل الاقتصادية هى المحرك الأول للأفراد والجماعات.

● يقولون بديكتاتورية الطبقة العاملة ويبشرون بالحكومة العالمية.

● تؤمن الشيوعية بالصراع والعنف وتسعى لإثارة الحقد والضغينة بين العمال وأصحاب الأعمال.

● الدولة هى الحزب والحزب هو الدولة.

● تكون المكتب السياسى الأول للثورة البلشفية من سبعة أشخاص كلهم يهود إلا واحداً وهذا يعكس مدى الارتباط بين الشيوعية واليهودية.

● تنكر الماركسية الروابط الأسرية وترى فيها دعامة للمجتمع البرجوازى

وبالتالى لابد من أن تحل محلها الفوضى الجنسية.

● لا يحجمون عن أى عمل مهما كانت بشاعته فى سبيل غايتهم وهى أن يصبح العالم شيوعياً تحت سيطرتهم. قال لينين: «إن هلاك ثلاثة أرباع العالم ليس بشىء إنما الشىء المهم هو أن يصبح الربع الباقى شيوعياً». وهذه القاعدة طبقوها فى روسيا أيام الثورة وبعدها وكذلك فى الصين وغيرها حيث أبيدت ملايين من البشر، كما أن اكتساحهم أفغانستان بعد أن اكتسحوا الجمهوريات الإسلامية الأخرى كبُخارى وسمر قند وبلاد الشيشان والشركس، إنما ينضوى تحت تلك القاعدة الإجرامية.

= يهدمون المساجد ويحولونها إلى دور ترفيه ومراكز للحزب، ويمنعون المسلم من إظهار شعائر دينية، أما اقتناء المصحف فهو جريمة يعاقب عليها بالسجن لمدة سنة كاملة.

= لقد كان توسعهم على حساب المسلمين فكان أن احتلوا بلادهم وأفنوا شعوبهم وسرقوا ثرواتهم واعتدوا على حرمة دينهم ومقدساتهم.

= يعتمدون على الغدر والخيانة والاغتيالات لإزاحة الخصوم ولو كانوا من أعضاء الحزب.

- الجذور الفكرية والعقائدية:

● لم تستطع الشيوعية إخفاء تواطئها مع اليهود وعملها لتحقيق أهدافهم فقد صدر منذ الأسبوع الأول للثورة قرار ذو شقين بحق اليهود:

- يعتبر عداء اليهود عداء للجنس السامى يعاقب عليه القانون.

- الاعتراف بحق اليهود فى إنشاء وطن قومى فى فلسطين.

● يصرح ماركس بأنه اتصل بفيلسوف الصيهونية وواضع أساسها النظرى هو موشيه هيس أستاذ هرتزل الزعيم الصهيونى الشهير.

- جدُّ ماركس هو الحاخام اليهودى المشهور فى الأوساط اليهودية مردخاى ماركس.

● تأثرت الماركسية إضافة إلى الفكر اليهودى بجملة من الأفكار والنظرات الإلحادية منها:

- مدرسة هيجل العقلية المثالية.

- مدرس كونت الحسية الوضعية.

- مدرسة فيورباخ فى الفلسفة الإنسانية الطبيعية.

- مدرسة باكونين صاحب المذهب الفوضوى المتخبط.

- الانتشار ومواقع النفوذ:

● حكمت الشيوعية عدة دول منها:

- الاتحاد السوفيتى، الصين، تشيكوسلوفاكيا، المجر، بلغاريا، بولندا، ألمانيا الشرقية، رومانيا، يوغوسلافيا، ألبانيا، كوبا.

ومعلوم أن دخول الشيوعية إلى هذه الدول كان بالقوة والنار والتسلط الاستعمارى. ولذلك فإن كل شعوب هذه الدول أصبحت تتململ بعد أن عرفت الشيوعية على حقيقتها وأنها ليست الفردوس الذى صور لهم وبالتالى بدأت الانتفاضات والثورات تظهر هنا وهناك، كما حدث فى بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا، كما أنك لا تكاد تجد دولتين شيوعيتين فى وئام دائم.

● أما فى العالم الإسلامى فقد استفاد الشيوعيون من جهل بعض الحكام وحرصهم على تدعيم كراسيهم ولو على حساب الدين، إذ اكتسحت الشيوعية أفغانستان وشردت شعبها المسلم كما تحكمت فى بعض الدول الإسلامية الأخرى بواسطة عملائها.

● تقوم الدولة الشيوعية بتوزيع ملايين الكتّيبات والنشرات مجاناً فى جميع أنحاء العالم داعية إلى مذهبها.

● أسست الشيوعية أحزاباً لها فى كل الدول العربية والإسلامية تقريباً فنجد لها أحزاباً فى مصر، سوريا، لبنان، فلسطين، والأردن، تونس وغيرها.

● إنهم يؤمنون بالأممية ويسعون لتحقيق حلمهم بالحكومة العالمية التى يبشرون بها.

- انهيار الشيوعية:

● انهارت الشيوعية فى معاقلها بعد قرابة السبعين عاماً من قيام الحكم الشيوعى وبعد أربعين عاماً من تطبيق أفكارها فى أوروبا الشرقية وأعلن كبار المسئولين فى الاتحاد السوفيتى قبل تفككه أن الكثير من المبادئ الماركسية لم يعد صالحاً للبقاء وليس بمقدورها أن تواجه مشاكل ومتطلبات العصر الأمر الذى تسبب فى تخلف البلدان التى تطبق هذا النظام عن مثيلاتها الرأسمالية. وهكذا يتراجع دعاة الفكر المادى الشيوعى عن تطبيقه لعدم واقعيته وتخلفه عن متابعة التطور الصناعى والعلمى وتسببه فى تدهور الوضع الاقتصادى وهدم العلاقات الاجتماعية وإشاعة البؤس والحرمان والظلم والفساد ومصادمة الفطرة ومصادرة الحريات ومحاربة الأديان. وقد تأكد بوضوح بعد التطبيق لهذه الفترة الطويلة أن من عيوب الماركسية أنها تمنع الملكية الفردية وتحاربها وتلغى الإرث الشرعى وهذا مخالف للفطرة وطبائع الأشياء ولا تعطى الحرية للفرد فى العمل وناتج العمل ولا تقيم العدالة الاجتماعية بين أفراد والمجتمع وأن الشيوعى يعمل لتحقيق مصلحته ولو هدم مصالح الآخرين وينحصر خوفه فى حدود رقابة السلطة وسوط القانون وأن الماركسية تهدم أساس المجتمع وهو الأسرة فتقضى بذلك على العلاقات الاجتماعية.

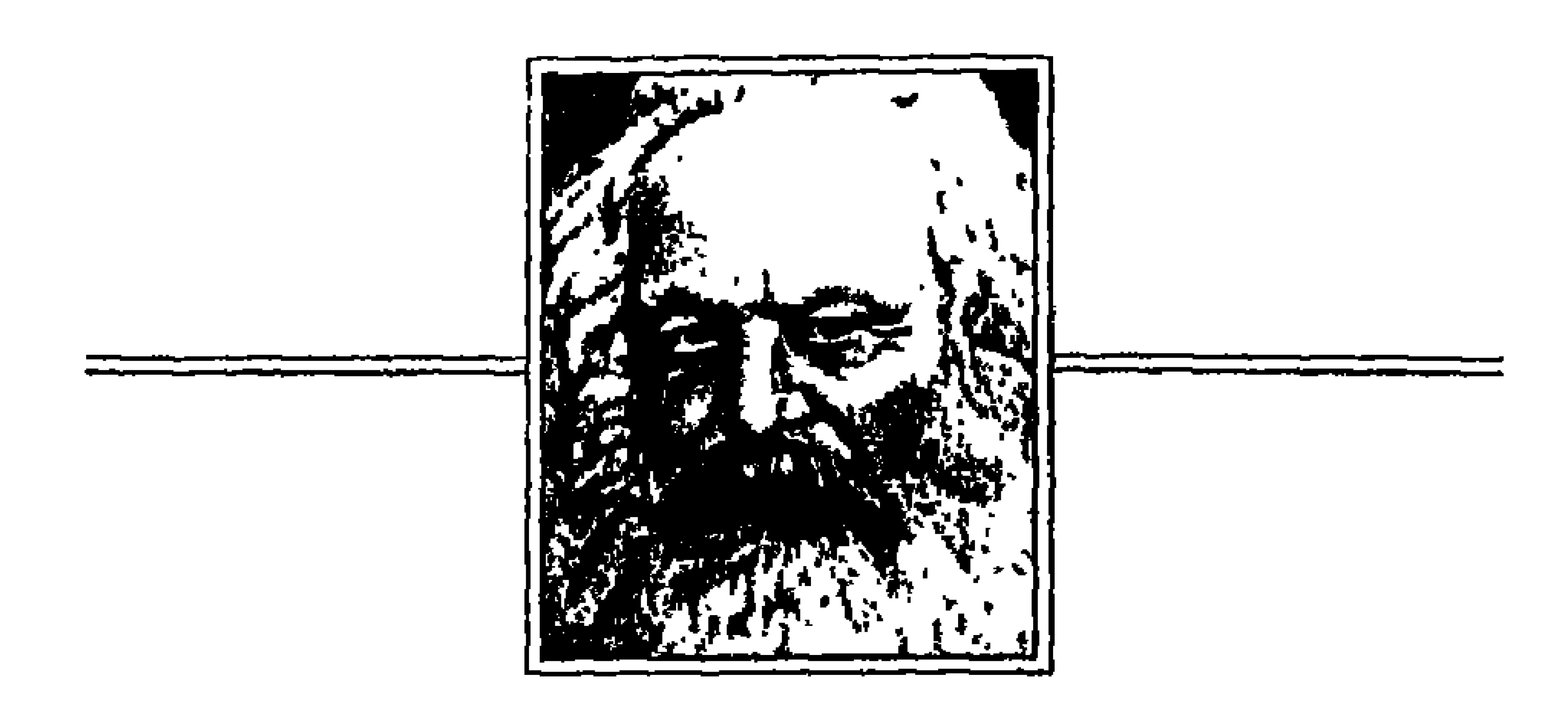
● اقتنع الجميع بأنها نظرية فاسدة يستحيل تطبيقها حيث تحمل فى ذاتها بذور فنائها وقد ظهر لمن مارسوها عدم واقعيتها وعدم إمكانية تطبيقها ومن أكبر ناقدى الماركسية من الماركسيين أنفسهم الفيلسوف الأمريكى أريخ مزوم فى كتابه المجتمع السليم، ومن غير الماركسيين كارل بوبر صاحب كتاب المجتمع المفتوح، وغيرهما، ويجىء جورباتشوف فى كتابه البيروسريكا أو إعادة البناء ليفضح عيوب تطبيق الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى.

وتبين بعد انهيارها أنها لم تفلح فى القضاء على القوميات المتنافرة بل زادتها اشتعالاً ولم تسمح بقدر ولو ضئيل من الحرية، بل عمدت دائماً إلى سياسة الظلم والقمع والنفى والقتل وحولت أتباعها إلى قطيع من البشر. وهكذا باءت جميع نبوءات كارل ماركس بالفشل وأصبح مصير النظرية إلى مزبلة التاريخ، ثم انتهى الأمر بتفكك الاتحاد السوفيتى ذاته، وأصبح اسمه مجرد أثر فى تاريخ المذاهب الهدامة.

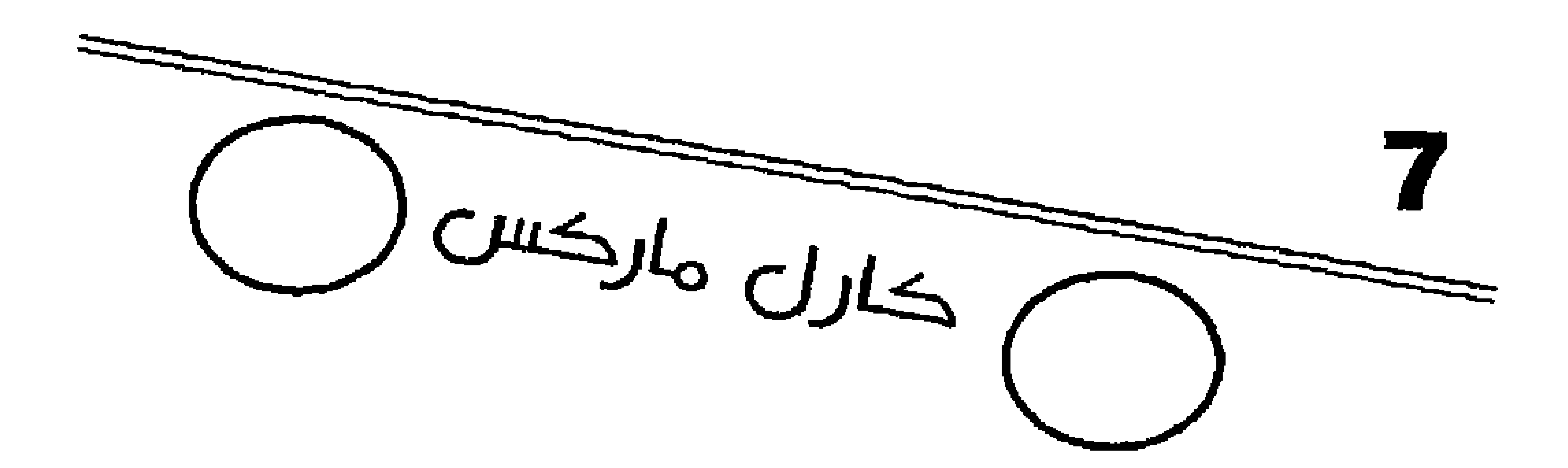
- ويتضح مما سبق:

أن الشيوعية مذهب إلحادى يعتبر أن الإنسان جاء إلى هذه الحياة بمحض المصادفة، وليس لوجوده غاية، وبذلك تصبح الحياة عبثاً لا طائل تحته ويحرم معتنقها من سكينة النفس ونعيم الروح ومن ثم فلا يمكن أن يجتمع الإسلام والماركسية فى قلب رجل واحد لأنهما متناقضان كل التناقض فى العقيدة والفكر والمنهج والسلوك.

■ ■ ■



الشيوعية والصهيونية



إن المتتبع للحركات الفكرية والتيارات الهدامة والممعن فى دراسة الخصائص التى تتسم بها الصهيونية والشيوعية يدرك إدراكاً قوياً أن هناك صلة وثيقة وعلاقة قوية وترابطاً متيناً بين هاتين الحركتين الخطيرتين، وهذا ما توصل إليه «نيتشه» فى القرن التاسع عشر عندما قال:

«إن المفكر الذى يهمه أمر أوروبا ويطيل فيه التفكير تكشف له نظراته إلى المستقبل أن اليهود والروس سيكونان أهم العوامل فى رواية المستقبل العظيمة وصراع القوى المنتظر».

لقد كشف نيتشه بهذه الكلمات عن الصلة الخفية بين الصهيونية والشيوعية وحدد أهدافهما.

فالهدف الأسمى للشيوعية- كما تعلم- هو السيطرة على مقدرات البشر والسيادة على العالم، وقد أصبح هذا واضحاً منذ مقالة ماركس «أمامكم العالم وعليكم أن تكسبوه».

وهذه السيطرة على العالم هى ما تشوق إليها الصهيونية منذ زمن بعيد لاعتقادهم بأنهم شعب الله المختار وأن بقية الناس ما خلقوا إلا للسير فى ركابهم والعمل فى خدمتهم وتنفيذ أوامرهم والإسراع فى طاعتهم.

ولقد جاء فى البروتوكول الخامس من بروتوكولات حكماء صهيون «إننا نقرأ فى شريعة الأنبياء أننا مختارون من الله لنحكم الأرض. وقد منحنا الله العبقرية كى نكون قادرين على القيام بهذا العمل، وسنضع موضع الحكومات القائة مارداً يسمى إدارة الحكومة العليا، وستمتد أيديه كالمخالب الطويلة المدى، وتحت إمرته سيكون له نظام يستحيل معه أن يفشل فى إخضاع كل الأقطار».

ومن أجل ذلك فإن الصهاينة هم أول من نادى بالشيوعية:

وها هى مجلة «أفريكان هيبرو» وهى من كبرى المجلات اليهودية الأمريكية تقرر فى عددها الصادر فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٢٠ أن الثورة الشيوعية فى روسيا كانت من تصميم اليهود، وأنها قامت نتيجة لتدبير اليهود الذين يهدفون

إلى خلق نظام جديد للعالم وأن ما تحقق فى روسيا كان بفضل العقلية اليهودية التى خلقت الشيوعية فى العالم ونتيجة لتدبير اليهود ولسوف تضم الشيوعية العالم بسواعدهم.[١]

كذلك تعمل كل من الصهيونية والشيوعية على نشر الإلحاد وتخريب القيم الكريمة والفضائل السامية ونسف كل المثل التى تدعو إلى الأخلاق والقضاء على الأديان وهى أساس كل خلق نبيل فإذا فسدت الأديان وضاعت القيم وتلاشت الأخلاق ودب التحلل فى الأمم وتسرب الفساد فى المجتمعات وزالت مناعتها فإنه- بعد هذا- يسهل السيطرة عليها.

ولقد جاء فى البروتوكول الرابع عشر:

ولهذا السبب يجب علينا أن نحطم كل عقائد الإيمان وإذ تكون النتيجة المؤلمة لهذا هى إثمار ملحدين، فلن يدخل هذا فى موضوعنا، ولكنه سيضرب مثلا للأجيال القادمة التى ستصغى إلى تعاليمنا عن دين موسى الذى وكل إلينا بعقيدته الصارمة واجب إخضاع كل الأمم تحت أقدامنا».[٢]

ونفس الهدف هو ما تعمل له الشيوعية، وها هو زعيم الشيوعية الأكبر وواضع أسسها «كارل ماركس» يقول «لا إله والحياة مادة» ومن هنا كان سرور اليهود بماركس ولذلك فإنهم سارعوا بترتيب نجاحه بالدعاية وبالكتب والصحف وبكل وسائل الدعاية والإعلام والنشر بل يعلنون ذلك كله صراحة حيث يقولون:

«نحن الصهيونيين الذين رتبنا نجاح كارل ماركس».

كذلك فإن طابع العنف والوحشية والقسوة والقدر وكل ما تتصف به الشيوعية هو نفسه ما تتصف به الصهيونية.

---

(١) ص١٧٢، حقيقة الشيوعية.

(٢) ص١٨٤، الخطر اليهودى- بروتوكولات حكماء صهيون، محمد خليفة التونسى.

يقول ستالين:

«إنكم لا تستطيعون الهرب من الكوارث الطبيعية التى تقتل الملايين فتقبلونها صاغرين، فكيف لا تقبلون عمليات التطهير التى تقوم بها السلطات الشيوعية للحفاظ على هذا المبدأ الذى سيقدم إليكم الخير».

وهذا ما جاء فى البروتوكول الصهيونى الأول:

«يجب أن يكون شعارنا كل وسائل العنف والخديعة، إن القوة المحضة هى المنتصرة فى السياسة، وبخاصة إذا كانت مقنعة بالألمعية اللازمة لرجال الدولة، يجب أن يكون العنف هو الأساس».(١)

ولذلك فإننا نرى أن أنصار الشيوعية فى العالم معظمهم من أنصار اليهود، وقد تبين ذلك من خلال بيان فى الإحصاء أجرته السلطات الأمريكية وظهر لها منه أن تسعين فى المائة من أعضاء الحزب الشيوعى الأمريكى من غلاة الصهيونية، وأن الموظفين الذين فصلوا من الخدمة بتهمة الشيوعية كان من بينهم ١١٨ يهودياً من ١٣٠، وإثر قيام الثورة الشيوعية فى روسيا حكم روسيا عشرة أعضاء كان بينهم ستة من اليهود وأن ستالين كان متزوجاً من يهودية بل إنه فى بعض الروايات كان من أصل يهودى ومؤسس الماركسية من أب وأم من اليهود.(٢)

ومن كل ما تقدم نصل إلى حقيقة لاشك فيها وهى أن الصهيونية أصل الشيوعية وأنهما صنوان منبعهما واحد وغايتهما واحدة وهذا ما كتبه «فرانك.ل.بريتون» فى كتابه الصهيونية والشيوعية حيث يقول: وأما الحقيقة الراهنة فهى أن الصهيونية والشيوعية صنوان منبعهما واحد وغايتهما واحدة وما اختلافهما الظاهر سوى ترتيب موقت اقتضاه النجاح فى السعى إلى الغاية الواحدة حتى إذا تحققت الثقة بالنجاح الكامل اتحدتا معاً للسيطرة على العالم.

---

(١) ص٢٧، حركات ومذاهب فى ميزان الإسلام، فتحى يكن.

(٢) ص١٧٢- ١٧٣، حقيقة الشيوعية.

ويقول «روبرت وليامز» صاحب كتاب «اليهود فى أمريكا»:

إن الصهيونية ليست شقيقة الشيوعية فحسب بل هى أمها، وكل من درس تاريخ الشيوعية يعلم أن الذين كونوها وساروا بها إلى وضعها الراهن أغلبهم- خلال تاريخها- يهود متعصبون لليهودية.(١)

إن الشيوعية ربيبة للصهيونية العالمية وهذا مما لاشك فيه بل هذا ما نطقت به فقرة من فقرات البروتوكول الثالث لحكماء صهيون حيث تقول: إننا نقصد أن نظهر كما لو كنا المحررين للعمال، جئنا لنحررهم من هذا الظلم، حينما ننصحهم بأن يلتحقوا بطبقات جيوشنا من الاشتراكيين والفوضويين والشيوعيين، ونحن على الدوام نتبنى الشيوعية ونحتضنها متظاهرين بأننا نساعد العمال طوعاً لمبدأ الأخوة والمصلحة العامة للإنسانية، وهذا ما تبشر به الماسونية الاجتماعية.

ومن المعروف أن كثيراً من زعماء العالم العربى يدركون هذه الحقيقة ويعلمون أن أهداف الشيوعية والصهيونية واحدة ومنهجهما كذلك واحد وغايتهما- بلاشك- واحدة. يقول المرحوم عاهل السعودية الكبير الملك فيصل:

«إن الشيوعية والصهيونية لا تتيحان الفرصة للعالم لتحقيق أهدافه من التقدم والاستقرار، والعالم يحتاج إلى البناء لا الهدم والتخريب، ولكن الشيوعية والصهيونية لم تتركا لنا الفرصة لبناء بلادنا وشعوبنا، وعندما نقول الصهيونية والشيوعية نذكر اسمين، ولكن الحقيقة أن الصهيونية ولدت الشيوعية وهدفها الأساسى هو التخريب والتحطيم ولسوء الحظ يجدون الفرصة فى أكثر من بلد فى العالم لتخريبه».

وقد بدأت الشيوعية والصهيونية الآن فى إدخال نظريات هدامة للتأثير على النشء الجديد لينشأ ضعيفاً لا يعتمد عليه، كما أنهم أفشوا التحلل الخلقى والنظريات التخريبية للتأثير على المجتمع والأخلاق».

---

(١) ص٥٢، الإسلام والشيوعية، د.عبدالحليم محمود.

إخفاق الماركسية نظرياً

كان ماركس قد ولد فى العقد الثانى من القرن التاسع عشر، وتوفى فى نهايته، وكان هذا الزمن هو منتهى رقى الثورة الصناعية فى أوروبا، وكان اختراع الماكينات، التى تسيّرها طاقتا البخار والكهرباء، قد حرم عددا لا يحصى من البشر من فرص العمل، وجعل ميدان الصناعة والتجارة حكرا فى أيدى حفنة من ملاك المصانع والرأسماليين، وبدا أن بقية الناس كلهم مستهلكون، يشترون ما يقدمه هؤلاء الرأسماليون من سلع وخدمات. وأثر هذا الوضع، الناشئ عن احتكار البعض لإمكانات الثورة الصناعية، فى الكثير من مفكرى أوروبا، فبدءوا يفكرون فى التدابير، التى تنقذ مجتمعهم من ويلات هذا الاحتكار المضر، وظهر من بين هؤلاء ماركس، الذى حول رد فعل الفكر الأوروبى ضد الرأسمالية إلى فلسفة قائمة بذاتها، وكانت هذه الفلسفة- فى حقيقة الأمر- شكلا جديدا من أشكال الاستغلال، وقد عرّفها ماركس بنفسه «بأنها تجرد ملكيات الذين يجردون الآخرين من ملكياتهم».(١)

ولم يقم ماركس بمجرد التأكيد على ضرورة هذا الحل، الذى اقترحه، بل تقدم إلى الأمام، فزعم أن هذا الحل هو مقتضى التاريخ نفسه، وأنه حتمية من حتميات التاريخ، وأن من باب المستحيل أن يقع شىء آخر. ووصف برتراند راسل هذا الادعاء، حين قال عن ماركس: «إنه ليس داعية إلى الثورة الاشتراكية، بل هو المتنبئ بها».(٢)

وحين قدم ماركس نظريته منتقدا كل من سبقوه، تهافت البعض على نظريته، وكأنها هى الحل النهائى، الذى اكتشفه الإنسان أخيراً. وقد كتب

(1) Marx, The Capital, Vol.1 (moscow 1954). P763

(2) Bertrand Russell, Roads to freedom

إنجلز- رفيق ماركس المعروف- منتقدا نظرية هيجل، التى كانت سائرة فى أوروبا، حتى ذلك الوقت، قائلاً:

«إنك تجد الترقيع والاصطناع فى معظم تفاصيل هيجل. وبكلمة واحدة: هى كلها خاطئة. إن نظام هيجل كان فشلا كبيرا، بل كان أكبر فشل من نوعه».[1]

وكانوا يظنون فى ذلك الوقت أنهم اكتشفوا- بصورة نهائية- أسرار القوانين، التى تحكم مسيرة البشرية، وما عليهم إلا أن يطبقوا هذه القوانين عمليا. وكان الاشتراكيون حينذاك شديدى الإيمان بهذه النظرية، لدرجة أنهم كانوا يستهينون بالتضحية ببضعة ملايين من البشر فى سبيل تنفيذها! وكانوا يقولون: إن هذه تضحية- جد- بسيطة لتحرير البشرية، وتخليصها من صراعاتها المستمرة. ولكن التجربة كشفت أن الماركسية نظرية ناقصة، شأنها شأن نظريات الفلاسفة، الذين سبقوا ماركس. إن الزمن والتجربة أبرزا الكثير من نقائص الفكرة الماركسية، فنحن نستطيع- اليوم- أن نرى بأم أعيننا تلك النتائج، التى كان من سبقونا من منتقدى الماركسية يحذّرون منها بصورة نظرية.

لقد أثبتت تجربة الزمن أن تحليل ماركس لأحوال زمانه كان خاطئا. فأسلوب العمل، الذى اقترحه ماركس أصبح بلا جدوى، وأثبتت الأيام أن الحل الذى اقترحه ماركس لعلاج مشكلات البشرية، هو أبشع أنواع الظلم. وهكذا رفضت تجربة التاريخ كل تلك الأسس، التى اعتمدها ماركس لبناء «مبادئ فلسفة المستقبل»، وهو عنوان كتاب لماركس، نشره سنة ١٨٤٢. إن هذه التجربة التاريخية هى حكم التاريخ على الماركسية. ولكن أتباع ماركس رفضوا قبول هذا الحكم، فكلما ظهرت نقيصة من نقائص الماركسية، أو خطأ من أخطائها، اخترع هؤلاء تأويلات كلامية واهية، بل ادعوا أنها «حقائق جديدة» أضيفت إلى ذخيرة الماركسية! إن هذه «الحقائق الجديدة» ليست إضافة إلى تراث ماركس، بل هى أدلة على أخطائه. وقد أمكن اكتشاف هذه «الحقائق الجديدة» بارتكاب

(1) 'Socialism: Utopian and Scientific' in Marx, Selected Works, Vol.1, P167.

المزيد من الأخطاء. إن مثال الماركسية هو كمن يريد إثبات أن النهار ليل، فيغلق حجرته، ويقول لصاحبه: انظر، هل هناك من شمس؟! ولو أشار له صاحبه إلى شعيعات النور، التى تتسرب عن طريق النافذة المغلقة، فسيقول هذا المدعى: إن البنّاء الأحمق وضع النافذة فى غير مكانها الصحيح، وإلا لرأيت أن الحجرة بكاملها مظلمة! وسيتناسى هذا الشخص أن هذا المنطق المعوج دليل- فى نفسه- على كذب دعواه.

كان ماركس قد وضع أمامه مثال انجلترا القرن التاسع عشر، حين انتقد الرأسمالية. وكان هذا هو عصر الرأسمالية، حين كان العامل عبدا بأجر زهيد لا أكثر. وكان هذا العامل يعمل لسيده من ١٦ إلى ٢٠ ساعة فى اليوم، لقاء أجر لا يكاد يكفيه وأسرته. وكان رأسمالى القرن التاسع عشر يمتص الثروة من عرق العمال وحياتهم- بدون شك. وقد وصف ماركس هذا الوضع بقول: إن العامل لا يملك لحياته شيئا «سوى لقيمات جافة، وملابس بالية، وكوخ مظلم». وانطلق ماركس يجمع قصص ظلم الرأسماليين، وجمعها بتفضيل فى كتابه رأس المال. وقد وصف أحد المفكرين الاشتراكيين هذا الجزء من عمل ماركس بقوله: «إن أفضل أجزاء كتاب رأس المال هى تلك، التى تناقش الوقائع الاقتصادية، التى كان ماركس يعرفها معرفة موسوعية».(١)

وفيما يلى مثال من أمثلة الوقائع، التى جمعها ماركس فى كتابه:

(نشرت صحف لندن اليومية فى الأسبوع الأخير من يونيو سنة ١٨٦٢م خبرا مثيرا، بعنوان «وفاة بسبب كثرة العمل». وكان هذا الخبر يتعلق بفتاة تبلغ العشرين من عمرها، وتسمى مارى آن واكلى، التى كانت تصنع القلانس النسائية وكانت تعمل فى مصنع مشهور للملابس الجاهزة، وكانت امرأة تحمل اسم «إيليزيه» الجميل هى التى تستغل هذه الفتاة، فكانت مارى تعمل نحو ست عشرة ساعة ونصف الساعة يوميا فى الأيام العادية، ونحو عشرين ساعة عند اقتراب الأعياد والمواسم، وكان استخدام الشاى والقهوة يساعد قوتها المتهالكة

(1) Russell, Roads to freedom.

على الاستمرار فى العمل، وكان الموسم- الآن- فى عنفوانه، وكان على المصنع أن يجهز الملابس الفاخرة لبنات الأثرياء اللواتى سمح لهن بالرقص بمناسبة مجىء أميرة ويلز الجديدة، وعملت مارى لمدة ست وعشرين ساعة ونصف الساعة متواصلة، وكانت معها ٦٠ فتاة أخرى، وكان ثلاثون من هؤلاء يعملن فى حجرة واحدة وهكذا كانت كل فتاة تحصل على ثلث قدم مكعب من الهواء. وكانت هذه الفتيات تقضى الليالى فى سراديب ضيقة، قسّمنها بواسطة قطع خشبية لإيجاد أماكن النوم بها. وكان هذا المصنع واحدا من أفضل مصانع القلانس فى لندن، وقد أصيبت مارى بمرض يوم الجمعة، وفارقت الحياة يوم الأحد التالى، وقال الطبيب الذى عاينها: إن مارى ماتت جراء العمل الزائد فى حجرة مكتظة بالناس، وبسبب النوم فى مكان ضيق ومظلم. ولكن هيئة المحلفين قضت بأنها ماتت بالصرع، مع ملاحظة أن موتها يمكن أن يكون قد تعجل، بسبب العمل فى حجرة مكتظة والعمل الزائد».(١)

إن صفحات رأس المال وأبوابه، تفيض بوقائع من هذا النوع. وكان ماركس يقصد من وراء جمع هذه الوقائع المروّعة، أن يثير الكراهية العميقة فى نفوس أتباعه ضد الرأسمالية، وأن يُعدّهم لخوض أكثر الحروب المروعة فى التاريخ: الحرب الطبقية.

إن التجربة الجديدة تخبرنا بأن الأهداف، التى حددها ماركس لضربها، لم تعد قائمة باقية فى مكانها فى عالم اليوم. فلو بحثنا- اليوم- عن أمثلة الظلم الرأسمالى- التى جمعها ماركس فى كتبه، والتى قال عنها إن الثورة العمالية- وحدها- تستطيع القضاء عليها- فمن الممكن أن نجدها فى «الجنة الاشتراكية»، بدلا من البلدان الرأسمالية العادية.

لقد زادت أجور العمال اليوم، ونقصت ساعات العمل، وتم الإقرار بعلاوات من أنواع مختلفة، وتكفل أرباب العمل والمصانع والدولة بتدبير السكن والعلاج الطبى، وغيرهما من حاجات العمال. بل أصبح العمال شركاء فى الأرباح

(1) Marx, The Capital, Vol.1 PP 254-5

والإدارة، وبدأت الشركات الأمريكية تفتح لعمالها فرص شراء أسهمها. وحتى نهاية ١٩٥٧م كان عشرون ألف عامل وموظف فى هذه الشركات الأمريكية قد اشتروا جزءا من أسهمها. إن العامل الماهر هو رأسمالى صغير هذه الأيام.

لقد أثبت التاريخ بطلان فكرة «المصير الحتمى»، التى اكتشفها ماركس بعد دراسة ٣٥ سنة فى مكتبة المتحف البريطانى بلندن. كان ماركس قد ادعى أن النظام الرأسمالى يعانى من تناقض عظيم، وهو التناقض بين الأجير والرأسمالى. إن هذا النظام سمح لحفنة من الناس بتكديس الأموال، ولم تترك هذه الفئة القليلة لغيرها من الناس مجالا إلا أن يصبحوا عبيدا أجراء لديها، فمن ناحية نجد حفنة من الرأسماليين تملك كل شىء، ومن ناحية أخرى نرى الجموع الغفيرة من العمال المعدمين المحرومين. فهاتان طبقتان مختلفتان متناقضتان لا تلتقى مصالحهما البتة، وقد تنبأ ماركس بأن النظام الصناعى سيزيد من هوة هذا التمايز الطبقى، وسينحاز العمال والرأسماليون إلى معسكرين متعاديين. وقال ماركس: إن محاولات جمع الأثرياء والفرقاء على منبر واحد باسم القومية والوطن هى خدعة برجوازية، لا فائدة فيها للطبقة البروليتارية. وهو يرى «أن القومية ليست إلا وسيلة، تظلم بها طبقة طبقة أخرى، سواء أكان هذا فى ظل حكومة جمهورية، أو فى ظل حكومة ملكية قديمة».[1] وكان ماركس يؤمن بأن خدعة تقسيم الطبقة العمالية على أسس قومية ووطنية ستنكشف، وتنهار عما قريب، وسوف يتحد كل عمال العالم.

وكان فريدريك إنجلز قد أعلن فى أواخر القرن التاسع عشر أن «عمال الدول قد اتحدوا اليوم».[2] وكان مفكرو الماركسية يؤمنون- حينئذ- بأن عمال العالم سوف يثورون ضد الأنظمة الحاكمة فى بلدانهم لو نشبت حرب عالمية، وبهذا ستختفى الرأسمالية إلى الأبد. ولكن حين نشبت الحرب العالمية الأولى «١٩١٤- ١٩١٨م»، خذل عمال العالم النظرية الماركسية، وأيدوا الطبقة الحاكمة

(1) Principles and Practices of Communism, P 4.

(٢) هذا ما قاله إنجلز فى مقدمته للطبعة الألمانية من الميثاق الشيوعى، التى ظهرت سنة ١٨٩٠م.

فى بلدانهم. لقد غلبت المصالح الوطنية والقومية على المصالح الطبقية، فانضم العمال إلى رأسماليّى بلدانهم، وحاربوا ضد عمال بلدان أخرى. وكان مؤتمر «الدولية الثانية»،[1] الذى عقد فى بازل بسويسرا، واجتمع فيه مندوبون عماليون من كل أنحاء العالم، قد أعلن أن العمال سيشنون «الحرب ضد الحرب»، وهدد الحكومات الرأسمالية بأن العمال سيتمردون لو شنت هذه الحكومات حربا ما.

وقد تناسى العمال هذا الشعار، حين بدأت الحرب بالفعل، وانساقوا وراء شعار جديد طرح فى أوطانهم، وهو شعار: «الحرب من أجل الوطن». وكان شعارا رأسماليا معاديا للمنطق الماركسى. وهذا التغير الذى طرأ على الشعار العمّالى، أدى إلى مقتل ملايين من العمال، وأباد عمال بلد عمال بلد آخر، بلا رحمة.

وقد انتقد المؤتمر السادس للدولية الشيوعية، الذى عقد سنة ١٩١٨م، هذه الواقعة بالكلمات القاسية الآتية:

(لقد تم القضاء- بطريقة مخجلة- على جمعية الاشتراكيين الدولية «الدولية الثانية» خلال حرب ١٩١٤م. لقد نهج زعماؤها طريقا مخالفا للميثاق الشيوعى، الذى وضعه ماركس ولينين، والذى أعلن أنه لا وطن للطبقة البروليتارية فى ظل النظام الرأسمالى. لقد خالفوا القرارات، التى اتخذت فى مؤتمرى شتوتجارت وبازل ضد الحرب. إن عمال كل البلاد- مع بعض الاستثناءات- أيدوا الدّين الحربى، وأيدوا رفع السلاح للحفاظ على الوطن الاستعمارى، الذى كان الرأسمالى الاستعمارى يتحكم فيه، وأصبحوا جنوداً أوفياء للحرب الاستعمارية، بدلا من معارضتها. وحين أرادت حكومات بعض البلدان تحطيم الثورة، ساعد العمال فى هذا. لقد خانوا- بكل وقاحة- الثورة البروليتارية الناجحة فى المجر. لقد شاركوا فى مؤتمر جمعية الشعوب، وأيدوا

(١) «الدولية» هى التنظيم الدولى للطبقة العامل، التى أنشئت سنة ١٨٨٩م. وقد كتب ستالين عن الدولية الثانية قائلاً: «مضى عهد كامل بين ماركس وإنجلز وبين لينين، وخلال هذا العهد كانت الدولية الثانية هى المسيطرة على الساحة بلا منازع»: Problems of Leninism, P 14

حكوماتهم الاستعمارية ضد الدول المستعبدة. لقد ساعدوا فى تمرير قوانين عسكرية استعمارية. لقد عارضوا إضراب العمال، وأصبحوا وكلاء دعاية وعبيداً للرأسماليين).

إن هذه الوقائع تكذب التحليل الماركسى. فخلافا لتنبؤات ماركس، لا يقيم عمال العالم جبهة متحدة ضد رأسماليّى العامل، بل هم يتكاتفون مع الرأسماليين المحليين فى أوقات الشدة على أوطانهم، وهذا يدل على أن النظرية القائلة بحتمية المسيرة التاريخية على أسس اقتصادية، ليست إلا فكرة خاطئة. ولتأويل هذا الخلل فى الفكرة الماركسية، أعلن الماركسيون أن تغيرات عديدة طرأت على النظام الرأسمالى فى أوائل القرن العشرين، وجمع لينين فى كتابه «الإمبريالية» Imperialism الكثير من الأرقام والإحصاءات، ليثبت أن هذا هو «عصر الرأسمالية الاستعمارى»، الذى بدأ فى نحو سنة ١٩٠٠م. وعدّد لينين خصائص هذا العصر الرأسمالى الاستعمارى، ومنها أن الرأسمالية الصناعية توسعت، ودخلت دور الاحتكار، وزادت أرباح الرأسماليين، وانتقل جزء من هذه الأرباح إلى العمال- أيضا- حتى أصبح هؤلاء- أيضا- من المرفّهين المترفين. وهؤلاء هم الذين قال عنهم ماركس «إنه ليس لديهم شىء ليفقدوه سوى أغلالهم».

وكان ماركس قد كتب، وهو يشرح النظام الرأسمالى، أن انجلترا هى أول دولة صدّرت منتجات المصانع إلى البلدان الأخرى، وأن نسبة من الأرباح، التى جنتها هذه التجارة، انتقلت إلى العمال- أيضا، بل لاحظ ماركس أن مستوى حياة بعض العمال المهرة، وعمال المنتجات القطنية ارتفع كثيرا عن مستوى عمال البلاد الأخرى، فأنشأت هذه الطبقة العاملة علاقة وثيقة بالرأسماليين الناهبين. وشرح لينين هذه الظاهرة قائلاً: إن هذا الوضع يتعرض له كل بلد رأسمالى يدخل طور الرأسمالية الاستعمارية، والعمال الذين تصيبهم فوائد هذا الوضع- خصوصا زعماءهم- يتحولون إلى انتهازيين، ويدخلون فى

تسويات مع أصحاب المصانع عندما تحين الفرص.[1]

ما أغرب هذا التأويل، الذى يدافع عن نظرية التاريخ المادية، بحثا عن حيلة جديدة لمواصلة الحرب الطبقية ضد النظام الرأسمالى! فالماركسية تدعى أن النظام الرأسمالى مرحلة خاصة من مراحل مسيرة التاريخ الاقتصادية، وهى المرحلة التى توضح، وتكرس التناقض بين العمل ورأس المال، ثم تأتى الماركسية- نفسها- فتدعى أن تطور هذه المرحلة الرأسمالية، يقلل من هذا التناقض! وهذا كمن يدعى- فى وقت واحد- أن مجىء الليل قد يتلوه الظلام، وقد يستتبع مجيئه زيادة فى النور. إن بطولة لينين الفكرية تنحصر فى أنه أوجد تناقضات جديدة فى الماركسية، خلال سعيه لإزالة هذا التناقض فى الفكرة.

واخترع الماركسيون اصطلاحا جديداً هو «الماركسية اللينينية»، لربط أفكار لينين بفكر ماركس، وزعموا أن اللينينية ليست انحرافا عن الفكر الماركسى، بل هى تطوير له. بل زعم أحد الكتاب الشيوعيين أن رفض اللينينية هو بمثابة رفض للماركسية! وهذا ما حمل «روز الكزمبرج» على القول بأن «الشيوعيين الروس يزعمون أنهم أضافوا حقائق جديدة إلى ذخيرة الأفكار الاشتراكية. ولكن هذه الحقائق الجديدة لا تعدو أن تكون الأخطاء، التى ارتكبها هؤلاء مكرهين، مراعاة لظروف روسيا المحلية».

وحتى لو تجاهلنا هذه النقيصة فى تأويل لينين، فلا مناص من القول بأن اللينينية هى نقيض الفكر الماركسى الاشتراكى، لأنها تدمر جذور هذا الفكر وادعاءه الأساسى. فكان ماركس قد رفض كل قوانين الماضى، بادعائه بأن قانونا ما لا يصلح لكل زمان ومكان. وقال: «إن المجتمع البشرى يواجه الدمار، كلما استخدم منهجا غير علمى كهذا... وذلك لأن كل العقائد تعكس الحياة الطبقية لعصر ما، وتصبح هذه العقائد باطلة ولاغية فى العصور التالية، بسبب تغير نوعية الحياة، بل تصبح هذه العقائد عوائق فى طريق المسيرة نحو الرقى». أما الماركسية فادعى ماركس وأتباعه أنها قد حررت الإنسان من

(1) Emile Burns, What is Marxism (Bombay 1952), P 27.

عقائد القومية، وغيرها من الأفكار والعقائد البالية، وأنها حللت قوانين الكون كله فقدمت الصورة الكاملة والصحيحة للحاضر، وحددت المسار الصحيح للمستقبل. كان هذا هو ادعاء ماركس وأتباعه. ولكن تجربة التاريخ أثبتت خطأ هذه الدعوى.

لقد طرأ تحول جذرى على الظروف والأحوال، التى اعتمد عليها ماركس لدراسة المشكل البشرى. فقد تحول النظام الرأسمالى إلى نظام استعمارى، وحل الوفاق محل الصراع بين ملاك المصانع والعمال. وهكذا فقد الحل الماركسى معناه وجدواه فى ظل أحوال مستجدة. ونتج عن هذا أن كل انتقادات الماركسية لفلسفات الماضى، أضحت تنطبق على الماركسية نفسها. ولكن الماركسيين لم يكونوا ليقبلوا بإلغاء الحل، الذى اكتشفه نبىّ الاشتراكية، فاخترعوا من فورهم تأويلا جديداً فقالوا:

«إن فكرة ارتقاء العلمية مبنية- كسائر العلوم- على التجربة والحقائق التاريخية والبيئة المحيطة بنا. ولهذا ليست الماركسية بنظرية كاملة بصورة نهائية، بل هى ترتقى نحو الكامل، كلما تقدم التاريخ إلى الأمام، وحصل الإنسان على المزيد من التجارب، وتنطبق عليها الحقائق الجديدة، التى تظهر للعيان».(١)

ويشرح الماركسيون هذا التأويل قائلين: إن للمجتمع البشرى علما، كما للكيمياء والطب والفلك علوم. وعلم المجتمع البشرى هو الماركسية. وادعى هؤلاء أنه مثلما يكتشف الإنسان حقائق جديدة فى العلوم الطبيعية المختلفة، وينميها، ويطورها بالتجربة والمشاهدة، فكذلك تنمو الماركسية فى كنف الأحوال والتجارب العلمية!

وتنفس الماركسيون الصعداء باكتشافهم هذا التأويل، الذى حلّ لهم مشكلهم بصورة أبدية! ولكن القضية، التى نواجهها هنا، هى أنه بما أن علم المجتمع البشرى يتغير فى ضوء التجارب والمشاهدة- شأنه شأن العلوم الطبيعية-

(١) المصدر السابق، ص ١.

فكيف يمكن أن نفرض على القرن العشرين أفكار الحرب الطبقية، وإلغاء الملكية الخاصة، التى نبتت فى ظروف القرن التاسع عشر؟! والسؤال المطروح لدعاة الماركسية هو: إنكم تقرون بأن المشكل البشرى من المشكلات التى لم يفهمها الإنسان- بعد- بصورة نهائية.. فكيف تتخذون، وعلى أى أساس من العلم واليقين، الخطوات النهائية المطلقة لدفع البشر إلى قتال بعضهم بعضا، وتجريدهم من ملكياتهم؟! أليس من الممكن أن الشىء الذى تسمونه «حلا»، إنما هو خطأ نتج عن دراسة ناقصة، ومعلومات خاطئة؟! وأى دليل لديكم لتسليط خطأ الماضى على المستقبل- أيضا- فى الوقت، الذى تعترفون فيه بأن علم البشرية الحقيقي، وقانونه الأدى لمّا يُكتشف، وأن الإنسان سيقترب- دوما- إلى ذلك العلم والقانون، بفضل تجاربه ودراساته؟! ولا يحق لكم، والحالة هذه، إلا أن تواصلوا دراساتكم فى المختبرات والمكتبات. ولكن أنّى لكم أن تخضعوا الحياة البشرية لتجربة مروعة فى ضوء المعلومات الناقصة، التى حصلتم عليها؟! هل الحياة البشرية جثة هامدة، حتى نسلمها لطلبة كلية الماركسية، ليشرحوها، ويقطعوها لإجراء المزيد من التجارب؟!

إن المكتبة الاشتراكية مليئة بمثل هذه التناقضات. ومن عادة المفكرين الاشتراكيين أنهم يتقدمون بدعوى معينة لإثبات نظرية لهم، ثم يخترعون دعوى جديدة- بكل صفاقة- عندما يجدون أن الوقائع والحقائق المستجدة ترفض نظريتهم السابقة، وتكون دعواهم الجديدة مناقضة لدعواهم القديمة.

■ ■ ■

فشل الماركسية عملياً

ألقينا نظرة فيما سبق على الجوانب الفكرية من الحل الذى اقترحه ماركس لمشكل الحياة، وتوصلنا بعد بحثه إلى أنه ليس حلا، بل هو اجتهاد باطل لا يؤمل خير ما من ورائه، والآن سنتجه إلى بحث النتائج التى تمخضت عنها تجربة الحل الماركسى.

الاشتراكية تعترف...

لقد ثبت من خلال النقاش الفكرى الذى دار فى الصفحات الماضية أن الاشتراكية فشلت كنظرية، وقد اتضحت عيوب هذه النظرية فى أول تجربة عملية لها أجراها زعماؤها ومفكروها الأوائل فى روسيا، فروسيا لم تعد المختبر الأول للاشتراكية، بل هى المقبرة الأولى حيث دفنت الاشتراكية للأبد، وبقاء الاشتراكية فى بعض البلدان اليوم ليس كنظرية، بل كنظام حاكم، تماماً كالأنظمة الجمهورية فى بلاد أخرى.

فحين ظهرت الفكرة الجمهورية فى فرنسا القرن الثامن عشر كانت «نظرية» إنسانية تدعى أنها أصحّ نظرية للحياة، وأنها ستحل كل مشكلات البشرية، ولكن «الجمهورية» لا توجد اليوم بهذا المفهوم فى أى بلد من البلدان، بل هى سلاح سياسى يستخدمه السياسيون الماكرون للتسلط على رقاب عامة الناس، وهكذا لم تعد الاشتراكية نظرية لها ادعاءاتها الضخمة لحل مشكلات الحياة، بل هى خدعة سياسية يستغلها البعض للتحكم فى سكان ثلث المعمورة.

ولم تعد هذه الحقيقة المرة حول النظام الاشتراكى «دعاية رأسمالية»، بل قد صدّق عليها الزعماء الروس أنفسهم ابتداء من المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى، فعندما يعتلى أحد سدة الحكم فى ظل هذا النظام لا يمكن التخلص

منه إلا عندما يقبض ملك الموت روحه.

ولم تمكن تنحية ستالين ولا تجرأ أحد على كشف مظالمه فى حياته، بل ظلت أبواق الشيوعية تعرض مظالم عهده بأنها «العدل التاريخى العظيم»، ونعتوه بأنه «الملتزم الحقيق بالماركسية الكلاسيكية»، ولكن الصحافة الاشتراكية نفسها اعترفت بعد مماته بأنه كان أكثر الناس ظلما فى تاريخ البشرية، و«أن أنانيته كانت قد اكتسبت أبعاداً منفرة فى أواخر عهده، فظن أنه فوق الحزب وفوق الشعب، ولم يعد يعبأ بآراء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى، وأخذ يحكم بالأسلوب الديكتاتورى».[1]

والخطاب الذى ألقاه أمين الحزب الشيوعى الروسى خروشيف «بعد وفاة ستالين» فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى الروسى فى فبراير ١٩٥٦ كان إدانة صريحة لستالين، وهو خطاب طويل، ولأهميته الكبيرة نقتبس منه الفقرات الآتية:

(شخص يدرك كل شىء، ويرى كل شىء، ويعرف كل فرد، ولا يخطئ أبدا، إن الاعتراف بمثل هذه الصفات غير العادية فى شخص ما، هو الاعتراف به إلها، ولكن ظلت هذه عقيدتنا حول ستالين لسنوات طوال، وقد نقضتها اللجنة المركزية بعد وفاته).

(ولم يكن ستالين يعرف التفاهم بل كان يفرض آراءه فرضا، وكان يطالب الناس بالطاعة العمياء، وكان يقضى للأبد على الذين لا يطيعونه أو يختلفون معه فى وجهات النظر، وقد وقع كبار زعماء الحزب وعمّاله ضحايا ديكتاتوريته فى أعقاب المؤتمر السابع عشر للحزب).

(واخترع ستالين مصطلح «عدو الشعب»، وأصبح معناه تلقائيا القبول بآراء فرد واحد «ستالين»، صحيحة كانت أم خاطئة، وأمكن بواسطة هذا المصطلح اقتراف كل أنواع الظلم، وتشريع كل أنواع العنف فى حق من لا يؤيد سياسة

(١) مجلة Soviet Land الروسية «الرسمية»، عدد ١ يونيو ١٩٥٦.

من سياساته، وبعد ظهور هذا المصطلح أصبح مستحيلاً التوصل إلى نتيجة ما بعد اختلاف الآراء والأخذ والرد فى قضية ما، والأساس القانونى الذى توصلوا إليه لاتخاذ الإجراءات ضد مثل هذا الشخص هو «الاعتراف» الذى كانت يُنتزع منه انتزاعا بواسطة التعذيب الجسدى).

(وديكتاتورية فرد ما جعلت الآخرين- أيضا- يمارسون الديكتاتورية، فتم اعتقال ما لا يحصى من الناس، وتم نفى الألوف، وصدرت الأحكام بدون الإجراءات القضائية والتحقيقات، وأدى هذا الأسلوب إلى نشوء حالة من انعدام الأمن وجعل الناس يفقدون الأمل).

(وحدث أخيرا، فى أعقاب القضاء على عصابة بيريا[1]، أن اللجنة المركزية حققت فى وقائع كثيرة اخترعتها هذه العصابة فى عهدها، فانكشف الغطاء عن حقائق مروعة حول أنانية ستالين الوحشية، وعُلم أن ستالين كان يستخدم سلطاته اللامحدودة بطريقة جد خاطئة، فكان يتخذ الإجراءات باسم اللجنة المركزية، بينما لم يكن حتى يستطلع آراء أعضاء اللجنة المركزية حول تلك الأمور، ولم يكن يستشير المكتب السياسى للجنة المركزية، بل لم يكن يخبرهم عموما بقراراته الشخصية فى أهم القضايا.... ولم يدع إلى انعقاد مؤتمر الحزب لسبع سنوات بعد الحرب «العالمية الثانية».

(وقد اتضح أن الذين أطلق عليهم وصف «الأعداء» خلال سنتى ١٩٣٧- ١٩٣٨م لم يكونوا أعداء فى حقيقة الأمر، ولم يكونوا جواسيس، ولا كانوا إرهابيين، بل كان معظمهم من الشيوعيين المخلصين جدا، لقد تم التشهير بهم وانتزعت منهم الاعترافات بجرائم خطيرة بواسطة تعذيبهم الجسدى المروع).

وحدث فى تلك الأيام أن ألقى القبض على ٩٨ شخصا من مجموع ١٣٩ قياديا، انتخبوا أعضاء باللجنة المركزية للحزب خلال المؤتمر السابع عشر وأعدموا بالرصاص، ولم يكن هذا هو مصير أعضاء اللجنة المركزية وحدهم،

---

(١) بيريا هو رئيس المخابرات الروسية الذى قتله رفاقه سنة ١٩٥٣ فى أعقاب وفاة ستالين، وكان أكبر أداة يستغله ستالين لإرهاب المنتقدين والمعارضين- المترجم.

بل هكذا عومل مندوبو المؤتمر الثامن عشر للحزب، فتم القبض على أكثرهم أى ١١٠٨ أشخاص من مجموع ١٩٦٦ مندوبا، وذلك بتهمة «جرائم ضد الثورة».

(ومن الأمثلة المخجلة للبهتان المنفر والإجراءات المجرمة ما حدث لإيخه Eikhe، الذى كان مرشحا لعضوية المكتب السياسى للجنة المركزية، وكان عاملا بارزا بالحزب الشيوعى، وكان عضوا بالحزب منذ سنة ١٩٠٥، وقبض على الرفيق «إيخه» فى التاسع والعشرين من أبريل سنة ١٩٣٨ بتهمة اختلاس أملاك حكومية).

والتحقيق الذى جرى خلال قضية «إيخه» هو أسوأ مثال للكذب الوحشى، فقد أجبر إيخه بواسطة التعذيب الجسمانى الشديد على أن يوقع على وثيقة اعتراف أعدها قضاة محكمة التفتيش لتجريم نفسه وآخرين من أعضاء الحزب البارزين بتهمة أنشطة معادية للشعب، وأعدم إيخه بالرصاص فى ٤ فبراير، وهناك قضايا أخرى كثيرة مماثلة تقوم على البهتان والتزييف.

(وحين كان ستالين يأمر بالقبض على شخص ما، كان يجب الإيمان بأن هذا الشخص «عدو للشعب»، وكان عصابة بيريا، الذى كان مسئولا فى تلك الأيام عن أمن الدولة، تتحرك بسرعة لتجريم ذلك الشخص وإثبات التهم الباطلة الموجهة ضده، وماذا كانت الدليل الذى تأتى به هذه العصابة؟! هو هذا «الاعتراف» الذى كان قاضى التفتيش يقبل به من فوره، وكيف يمكن أن يعترف شخص بجرائم لم يرتكبها أصلا؟! كانت هناك وسيلة واحدة: هى الضغط عليه بواسطة التعذيب الجسمانى وتسليط العذاب الشديد عليه إلى أن يصل إلى حد الإغماء بتأثير آلام لا سبيل له إلى تحملها، وهكذا كان يتم إجباره على التوقيع على الاعتراف بارتكاب جرائم خطيرة).

(ولم يكن من هدف لأفلامنا وإنتاجنا الأدبى والفنى إلا الدعاية لستالين والإتيان بقصائد لمدحه، وخذ مثلا على ذلك فيلم «سقوط برلين» The fall of Berlin، فهذا الفيلم يصور هزيمة الألمان فى مواجهة الروس فى الحرب

الماضية، ولكننا نشاهد دور ستالين وحده فى الفيلم كله، فهو يجلس فى قاعة يصدر الأوامر، وهناك كراسٍ كثيرة خالية ولا يرى شخص فى القاعة سواه، والسؤال هو أين الإدارة العسكرية؟! وماذا يفعل المكتب السياسى؟! وما الذى تقوم به الحكومة؟! أين هؤلاء الناس، ولأى عمل تم استخدامهم؟! الفيلم لا يقول عنهم شيئا، فستالين يقوم بكل شىء وحده، وهو لا يعتمد على أى شخص، ولا يستشير أحدا. هذا الفيلم يقدم كل شىء بصورة جد سيئة، لماذا؟! لأجل سمعة ستالين، بعيدا عن الحقيقة والواقع).(١)

وقد أثر هذا الاعتراف الرسمى بجرائم ستالين (٢) المروعة فى كثير من المؤمنين بالشيوعية تأثيرا عميقا وهزّهم بعنف، ولذلك استقال كثيرون من شيوعيى العالم من عضوية الأحزاب الشيوعية فى بلدانهم، ومن هؤلاء الأديب الأمريكى المعروف هيوارد فاست Howard Fast، الذى كان عضوا بارزا بالحزب الشيوعى الأمريكى منذ عشرين سنة، ويقول فاست فى مقال له:

(لقد كنا، أنا وآخرون من أعضاء الحزب الشيوعى، قد أدركنا قبل وقت طويل من نشر خطاب خروشف السرى، أن هناك عيبا مؤلما فى الحركة الشيوعية العالمية، وكان هذا الإدراك قد دفعنى وآخرين كثيرين إلى ميل نحو التغيير، وبالرغم من هذا الإدراك، لم نكن مستعدين للانكشافات النارية والجهنمية التى وردت فى تقرير خروشف السرى، فقد فاقت حدود الدهشة أوهامنا، وفاقت أسوأ الاتهامات التى كان أعداء الاتحاد السوفيتى يوجهونها

(١) نيو يورك تايمز، عدد ٥ يونيو ١٩٥٦ (ملاحظة للمترجم: هذه الترجمة العربية هى عن الترجمة الأردية التى هى بدورها عن الإنجليزية).

(٢) يلاحظ فى هذا الشأن أن الطبعة الثانية «للموسوعة السوفيتية العظيمة» Great Soviet Encyclopedia صدرت فى موسكو سنة ١٩٥٨ بعد وفاة ستالين، وهى تحتوى على ست صفحات عنه، بينما طبعتها الأولى، التى صدرت فى ظل ستالين، كانت قد خصصت ٤٦ صفحة حوله، والطبعة الجديدة تثنى على بعض الجوانب من حياة ستالين إلا أنها توجه إليه نقدا لاذعا، وهى تحتوى مكتوبا بقلم لينين يصف ستالين بأنه «شكاك وغيرٌ وفىّ لزملائه». صحيفة ستيتسمان، دهلى، ١٨ فبراير ١٩٥٨.

إليه، فامتلأ قلبى نفورا وحقارة، وكنت أشعر بكآبة عقلية لا حد لها من أننى كنت أؤيد هذه اللعبة الدموية الظالمة، وشعرت- كالآخرين- بأننى وقعت ضحية لخدعة فى التاريخ الحديث لا سبيل إلى وصفها).[1]

وبعد نشر تقرير خروشوف، الذى أوردنا فقرات منه فيما سبق، طالب الحزب الشيوعى الفرنسى أن يقدم الحزب الشيوعى الروسى تفسيرا نظريا كاملا للجرائم الفظيعة المنسوبة إلى ستالين، فنشرت اللجنة المركزى للحزب الشيوعى الروسى بيانا متفقا عليه، ونشر هذا البيان فى عدد ١٥ يوليو سنة ١٩٥٦ من مجلة Soviet Land الروسية.

ويرد هذا البيان على سؤال: «كيف برزت وانتشرت ديكتاتورية ستالين بكل نتائجها السيئة فى ظروف النظام الاشتراكى السوفيتى»؟! وهذا البيان ملىء بالمتناقضات فهو يقول: إن «عبادة الفرد الواحد» Cult of individual مسئولة عن ظهور هذه الأحوال، وبعبارة أخرى: لا تعود أسباب بروز الستالينية إلى النظام الاجتماعى السوفيتى، بل إلى شخص ستالين وحده، لأنه- بدلا من خدمة المجتمع عقب تسلمه منصب رئاسة الوزارة- أخذ يعبد ذاته وجعل نفسه أعلى من كل الشعب، والسؤال الذى يثور هنا هو: كيف أمكن لشخص واحد أن يستولى على كل السلطات فى بلد تم القضاء فيه على كل الطبقات الناهبة، وأقيمت فيه ملكية المجتمع على وسائل الإنتاج، وانتقلت فيه السلطة إلى الطبقة الكادحة بدلا من أن تظل محصورة فى يد واحدة؟! فكيف ظهرت عيوب الملكية الفردية فى هذا النظام الذى تسوده الملكية الاجتماعية؟! فهل صحيح ما يقوله معارضو الاشتراكية من أنها أبشع أشكال الديكتاتورية المستورة بأغلفة النظريات الجميلة؟! فهل السلطة لا تكون فى أيدى الشعب فى ظل النظام الاشتراكى، بل تكون فى أيدى شخص يتولى بالصدفة منصب الحاكم الأعلى للدولة؟! وهل «ديكتاتورية الكادحين» تعنى تحويل كل الشعب إلى كادحين لكى يتسلط عليهم شخص واحد؟!

(١) مجلة تحريك، دهلى، عدد يونيو ١٩٥٧.

والتفسير النظرى الذى قدمه الحزب الشيوعى الروسى لعيوب الحقبة الستالينية، يصطدم بالنظريات الماركسية نفسها، فهو يقول: إن أسباب فساد ستالين كامنة فى ذاته، وإنها ليست نابعة من الأحوال المادية المحيطة بالمجتمع.

وكان لينين ورفاقه قد عارضوا الاشتراكيين «النارودنكيين» بروسيا معارضة شديدة فى أوائل القرن العشرين، بناء على هذا الفهم، لأن النارودنكيين كانوا يقولون «أن التاريخ لا يقوم على الطبقات الاجتماعية وصراعها فيما بينها، بل هو يقوم على الأشخاص البارزين (الأبطال) الذين يقلّدهم الناس تقليدا أعمى».(1)

والآن يستخدم الشيوعيون هذه النظرية النارودنكية، التى حاربوها من قبل كنظرية خاطئة ورجعية، دفاعا وتأويلا عن الستالينية، ولو سألنا هؤلاء الشيوعيين: كيف تحول هتلر إلى ديكتاتور على ألمانيا، لن نراهم يقولون: إن جراثيم الديكتاتورية نبتت فى مخ هتلر، وإنها ترجع إلى سلوكه الفردى الذى مكن له من التسلط على مقادير ألمانيا، بل سيقولون- بكل إصرار- كما ظلوا يقولون: إن سبب الديكتاتورية يعود إلى نظام الإنتاج الذى كان سائدا فى ذلك المجتمع حينذاك، وإن حكومة هتلر الظالمة لم تكن نتيجة أعماله الفردية، بل هى نتيجة حتمية لنظام الإنتاج وطرق التبادل الرائجين فى ألمانيا حينذاك، فلم يكن هتلر يمثل سلوكا فرديا، بل كانت مصالح نظام الإنتاج الألمانى هى التى اتخذت شكل هتلر لأجل حماية نفسها، وفلسفة ماركس تقوم على الفكرة القائلة بأن الأفراد ألعوبة فى أيدى الأحوال المادية.

وظل المفكرون الماركسيون يهزءون- دوما- من الفكر التاريخى القائل بأن الأفراد يصنعون الأحوال، وهم الذين يفسدونها بمحض إرادتهم، ولكن حين ظهر هذا الشىء بعينه فى روسيا فى أعقاب تغيير نظام الإنتاج والتوزيع، ألقى هؤلاء بالتهمة على فرد- هو ستالين- لكى ينقذوا سمعة نظام الإنتاج الاشتراكى، بينما هذه الواقعة- ظهور الستالينية- دليل فى نفسها على واحد

(1) History of the Bolshevic Party, PP 12- 13.

من أمرين: إما خطأ نظرية ماركس القائلة بأن عقل الإنسان وسلوكه يصاغان وفق أحواله المادية، أو أن الظلم والاستغلال يستمران فى ظل نظام الإنتاج الاشتراكى، تماما كما يستمران فى ظل المجتمعات الرأسمالية، وإلا كيف لك أن تفسر ظهور الديكتاتورية فى روسيا التى تم تغيير أحوالها الاقتصادية طبقا للنظرية الماركسية؟!

لقد ظلت الدعاية الشيوعية تقول لأكثر من ربع قرن: إن جميع الملكيات وضعت فى أيدى المجتمع فى روسيا، وإن استغلال الإنسان للإنسان انتهى هناك، وإن الحكومة هناك ليست آلة الظلم والجبر، بل هى خادمة الشعب، وإن الحكومة والمواطنين يتمتعون هناك بحقوق متساوية.

ولكن حين رفع الستار عقب وفاة ستالين اكتشفنا أن هذا كله كان دعاية كاذبة، وأن ستالين كان هو الحاكم الأوحد خلال هذه الفترة، وأنه كان ظالما وأنانيا من الطراز الأول، وأن بيريا، ومولوتوف، ومالينكوف، وشيبلوف، وكغانوفيتش، وزوكوف وآخرين كثيرين، كانوا يساعدون ستالين على إدارة هذا النظام- كانوا ظلمة البشرية وأعداء الشعب- ولو تفسد حكومة ما فى إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية فستقوم قائمة الشعب، ولكن النظام الاشتراكى كان قد وضع فى أيدى هؤلاء الظلمة قدرا ضخما من السلطات. لدرجة أن أحدا لم يتجرأ على فتح فيه فى طول البلاد وعرضها، ولا نشر مقال فى الصحف ضدهم.

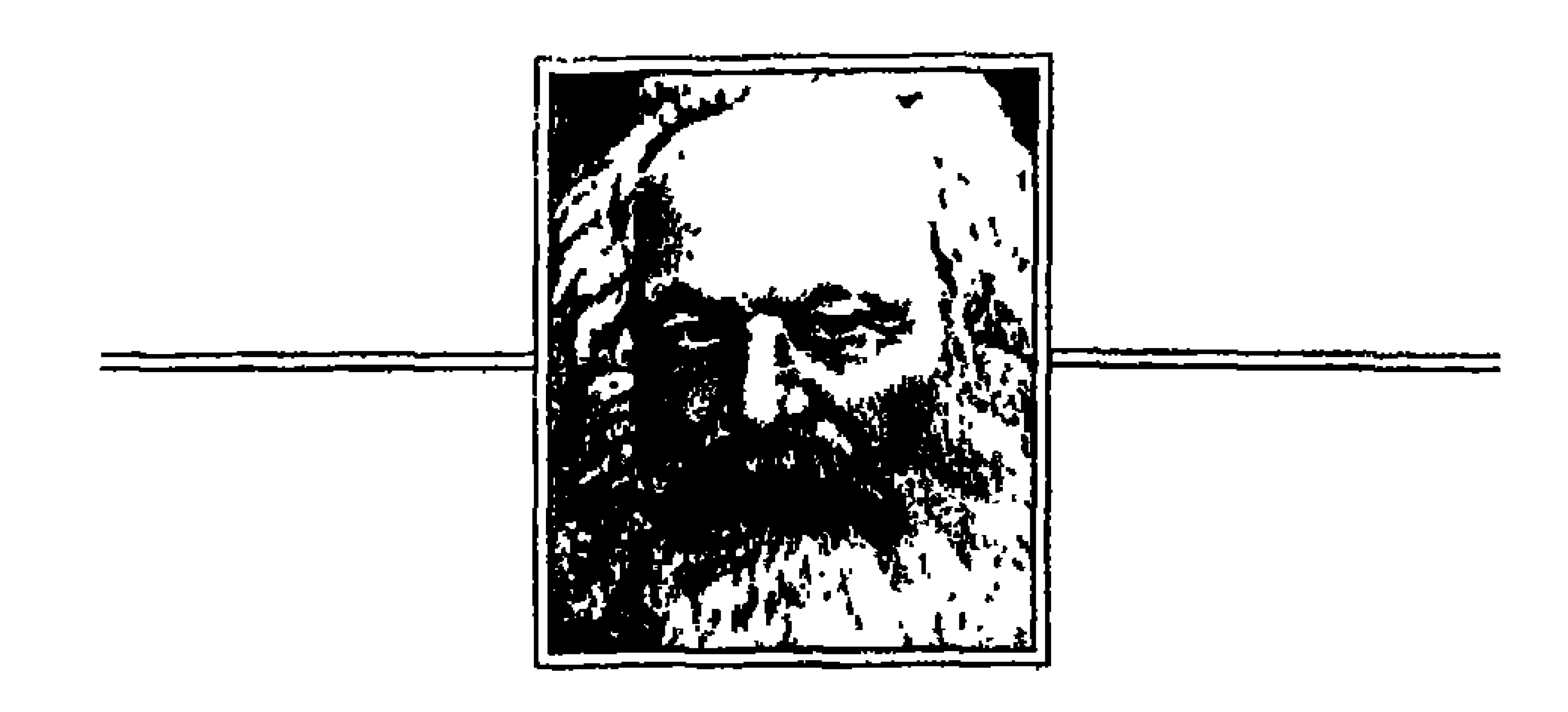
وحين أعلن ستالين أمام المؤتمر الثامن للحزب الشيوعى الروسى فى ٢٥ نوفمبر ١٩٣٦ «أن استغلال الإنسان للإنسان انتهى فى الاتحاد السوفييتى» ظل الحاضرون يرددون شعارات الاستحسان ونعرات المديح لمدة طويلة، وكل خطاب يلقى فى روسيا خلال حكم ستالين كان ينتهى- بغض النظر عن موضوعه- بالكلمات الآتية: «عاش ستالين» و«يحيا ستالين»، وكانت هذه النهاية كفيلة بنجاح الخطاب، لأن مثل هذه النهاية كانت توجب التصفيق الحاد وتجلب الشعارات المدوية تأييدا للخطاب، ولم تمض ثلاث سنوات على وفاة ستالين إلا

واستحق أوصاف «القاتل» و«اللص» و«السياسى المبتدئ»..

لقد ظلت أبواق الدعاية الشيوعية تعلن «أن النظام السوفيتى هو أفضل أنظمة العالم»،[1] و«أن السلطة كل السلطة فى الاتحاد السوفيتى هى فى أيدى الكادحين الذين هم ملاكها الحقيقيون»، و«أن المائتى مليون سوفيتى هم أول من ملك كل ثروات بلد حر، فى تاريخ البشرية»، أما حين انكشف الستار رأينا أنه لم يوجد نظام أبشع من هذا النظام فى التاريخ الإنسانى بأكمله.

■ ■ ■

(1) Soviet democracy and bourgeois democracy, P 4.



تنبوءات كارل ماركس الخاطئة



وقع ماركس فى عدة أخطاء قاتلة كانت كفيلة فى النهاية بالقضاء على نظريته.

أولاً: اعتمد ماركس فى استنباط نظريته عن التاريخ على بعض مراحل تاريخية دون الأخرى.. فكان ينتقى من التاريخ ما يوافق هواه ويهمل ما يناقض فكره.. ومن هنا لا يصح أن تكون للقوانين التى استخرجها صفة الإطلاق على التاريخ كله ولا تصدق عليها صفة القوانين وإنما هى فى الحقيقة تلفيقات.

وأقوى البراهين على ذلك هو نشأة الإسلام فلم يكن الإسلام قط من إفراز النظام الطبقى فى قريش، ولم يكن دينا رجعيا يحفظ للظالمين المستبدين أموالهم وامتيازاتهم، ولم يكن مخدراً للفقراء دافعا لهم على قبول فقرهم، فقد دعا الإسلام إلى التمتع بالحياة فى اعتدال ودعا إلى قتال الظالمين المستغلين.

ولم يأت الإسلام نتيجة انقلاب مناظر فى نظام الإنتاج وعلاقات الإنتاج فى قريش.. وإنما جاء كظاهرة فوقية مستقلة عن البيئة.

فقد جاء الإسلام من البداية مقرراً المساواة فى الفرص وضمان حق الكفاية للمواطن وتحقيق التوازن الاقتصادى بين الفرد والمجتمع وجاء بمبدأ الملكية الخاصة والملكية العامة ومبدأ الاقتصاد الحر الموجه.. وجاء بكل ذلك فى الجزيرة العربية فى وقت لم تكن ظروف الإنتاج وعلاقات الإنتاج تدعو إليه بحيث يمكن أن نقول إن ما حدث كان انبثاقا من واقع اقتصادى.. وتحدى بذلك منطق الماركسية التاريخى وحساباتها المادية التى تحتم انبثاق كل انقلاب سياسى من انقلاب مناظر فى الإنتاج وعلاقاته.

ثانياً: وقع الفكر الماركسى فى تناقض أساسى بين كونه فكراً يدعو إلى التضحية والبذل من أجل الآخرين وبين كونه فكراً محروماً من الحافز الدينى والمبدأ الروحى.. والدين كما هو معلوم يمد الإنسان بأعظم طاقة ليضحى ويبذل بلا حدود وعن طيب خاطر.

وهكذا أصبحت الماركسية تطالب بالنقاء الثورى والتضحية والولاء ثم

تجعل هذه الاخلاقيات مستحيلة بالفكر والنظرية «بحكم مادية النظر إلى الأشياء».

وهكذا تصور الماركسيون الماديون أن ثلاث وجبات دسمة يمكن أن تكون عزاء كافيا لإنسان يعلم أنه ولد ليموت.. إنسان كتب عليه أن يتألم وحده.. ويشيخ وحده.. ويموت وحده.. وتصوروا أن الولاء يمكن أن يشترى بالمرتب والمكافأة إن لم يشتر بالخوف من قطع العيش.. وكان هذا وهما كبيرا.

وإنها كلمة قديمة جداً.. «إنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان».. وإننا إذا كنا نولد لنموت فإن الدين الذى يقدم لنا حياة مطلقة وبعثا وخلودا هو أمر لا يمكن شطبه بجرة قلم ولا يمكن محاربته بخزعبلات نظرية.

وقد وجد ستالين نفسه أمام هذا التناقض الذى لا حل له حينما هجم الجيش النازى على روسيا وبلغ أبواب ستالينجراد.. فقد رأى الفلاح الروسى يقف متخاذلا لا يعرف لماذا يحارب ولماذا يموت ولا بعث بعد الموت ولا جنة ولا تكريم لشهيد.

لقد سلبت منه الشيوعية الجنة وسرقت منه الخلود فلم يعد يتحمس لشىء.

ولم يجد ستالين بدا من أن يعود فيبنى الكنائس ويفتح المساجد ليحيى القلوب التى ماتت.

وتغيرت التعليمات لكل الخلايا الشيوعية.. وجاءت الأوامر الجديدة.

لا تذكروا الدين بسوء.. ولا تتعرضوا لله.. ولا تناقشوا فى الغيبيات.. وإذا سئلتم فى ذلك فقولوا: هى مسائل غير مطروحة.. وليس هذا أوانها.

ولم تنفع هذه الاستراتيجيات الجديدة فى علاج الشكوك التى تحركت فى الصدور..

وعاد أنبياء الكرملين فاجتمعوا وانفضوا.

ثم عادوا فأصدروا تعليمات جديدة.. وسمعنا عن بعثات حج روسية تخرج من موسكو إلى مكة.. وسمعنا عن مفتٍ إسلامى يفتى فى روسيا البلشفية.

ولبس بعض الماركسيين طرحة إسلامية.

ولم ينفع هذا الصلح الانتهازى مع الدين.

ولكنه كشف للماركسيين أنفسهم عن ثغرة فى نظريتهم لا حل لها.

ثالثاً: ذلك العامل الاقتصادى الواحد الذى جعل منه ماركس إلهاً تصدر عنه كل الأشياء وسبباً وحيداً تتداعى من ورائه كل التغييرات التاريخية والحضارية فيما يسميه بالتفسير المادى للتاريخ.

هذه الفكرة سقطت علمياً والرأى السائد الآن أنه فى ميدان الظواهر الاجتماعية لا يوجد سبب واحد مستقل منفصل وفاعل يولد النتائج والظواهر الثانوية وإنما هناك عوامل متعددة تؤثر فى بعضها تأثيرات متقابلة.. فالعامل الجوهرى اليوم يمكن أن يصبح عاملا ثانويا فى الغد.

والعامل الاقتصادى بهذا لا يصلح أن يكون إلهاً تصدر عنه الأشياء وإنما هناك العامل القومى والنفسى والعنصرى والعقائدى يمكن أن تشكل التاريخ بأقوى مما يشكله العامل الاقتصادى.. وبين الصين وروسيا صراع سوف يشكل التاريخ ومع ذلك فهو ليس صراعا طبقيا ولا اقتصاديا، فالدولتان كلتاهما شيوعية وبقيادة البروليتاريا.

رابعاً: كانت ديكتاتورية البروليتاريا انتقالاً بالمجتمع من ظلم طبقى إلى ظلم طبقى آخر.. وكانت تغييراً للاستغلال الموجود باستغلال آخر أشمل وأسوأ وأعم.. فقد جاء الحزب الحاكم الجديد وجاء معه بزبانية مراكز القوى ليسجنوا ويعتقلوا ويظلموا ويستبدوا للحفاظ على امتياز الذين تميزوا وسلطان الذين تسلطوا.. وهكذا نقلوا المجتمع من طغيان إلى طغيان أفدح وأشاعوا مناخا من الرعب والصمت الرهيب والخرس الذى قطعت فيه الألسن وكسرت الأقلام وكممت الأفواه.. فالصحف جميعاً ملك للسادة الجالسين فى مراكز

القوى وسياط الرقابة مسلطة على الجميع.

وكان ماركس مبالغاً أشد المبالغة فى تلك الهالة الأسطورية التى أضافها على البروليتاريا «طبقة العمال» فى كلامه عن نقاء البروليتاريا وطهارة البروليتاريا وكأنها شعب الله المختار أو جنس آخر قادم من المريخ.. ونسى أن العامل والمثقف ومالك الأرض هم غالبا أفراد أسرة واحدة.

وقد أقام ماركس نظريته على ظروف القرن التاسع عشر الصناعية المتخلفة حيث العامل يدوى كادح مطحون مسحوق لا يكاد يجد لقمته.. ولم يتصور ما ستحدثه ثورة العلم والتكنولوجيا فى القرن العشرين حيث العامل رجل مرفه يجلس أمام أزرار وآلات إلكترونية ومن ورائه نقابات عمالية وقوانين التأمين ضد العجز والشيخوخة والمرض تحفظ له حقه.

ثم ها نحن أولاء، نرى أمامنا الطبقة العاملة نفسها تنشق إلى طبقتين متناقضتين نتيجة تفاوت الدخول هما العمال المؤهلون والعمال غير المؤهلين تنتج عنها فئة أرستقراطية وفئة شعبية من العمال أنفسهم.

والنتيجة كانت انفصال الفكر الماركسى عن واقع القرن الذى نعيشه ورجعيته وتخلفه قياساً بظروف عصرنا.

خامساً: هذا التعسف المنهجى الذى اتسمت به الماركسية وإصرارها على أن تكون فكراً شمولياً يجيب عن كل شىء ويبتكر الحل لكل معضلة ويفتح كل باب ويجاوب عن كل سؤال، ثم ادعاؤها حتمية قوانينها.. مع أنه من الأمور المعلومة أنه لا حتمية فى الأمور الإنسانية.. لأن الناس ليسوا جمادات مثل كرات البلياردو ولا هم آلات صماء كتروس الساعات يمكن حساب حركاتها والقول بحتميتها والتنبؤ بها.

ولهذا أخطأ ماركس فى جميع تنبؤاته.. فقال بخروج الشيوعية من مجتمع صناعى رأسمالى متقدم مثل إنجلترا وألمانيا فكذب التاريخ نبوءته وخرجت الشيوعية من بلد زراعى متخلف كالصين.

وتنبأ باتساع هوة الخلاف بين البرجوازية والبروليتاريا فى الدول الرأسمالية بشكل مطرد إلى أن يتفاقم الوضع إلى ثورة تقلب العالم كله، ولكن ما حدث فى المجتمعات الرأسمالية كان العكس وهو مزيد من التقارب بين الطبقات عقب سلسلة من الإجراءات الإصلاحية والأنشطة النقابية فى حين انطلق الصراع وتفاقم بين دول العالم الاشتراكى نفسه مثل الصراع بين روسيا والصين.

وتنبأ ماركس بازدياد تمركز رءوس الأموال فى احتكارات هائلة يزداد معها غنى الأغنياء وفقر الفقراء ولكن الذى حدث كان اتجاها إلى تفتيت رءوس الأموال. عن طريق الشركات المساهمة وتفتيت الملكيات الزراعية من تلقاء نفسها بالميراث.

وتنبأ ماركس بالأزمة الاقتصادية الماحقة التى تسحق النظام الرأسمالى بسبب ازدياد إجمالى الإنتاج على معدل الطلب والقدرة الشرائية نتيجة فقر العمال المدقع.. ولكن الملاحظ إلى الآن أن كل أزمات الرأسمالية ذات طابع عرضى.

وأخطأ ماركس فى نظريته عن فائض القيمة وقال إن أجر العامل فى النظام الرأسمالى يتحدد على أساس الحد الأدنى اللازم لمعيشته.. ولكن الواقع كذب هذه التقديرات بفضل التشريعات الجديدة والتعديلات التى أدخلها النظام الرأسمالى على نفسه فارتفع أجر العامل فى دول أوروبية كثيرة إلى مستوى رخاء ملحوظ سبق به زميله فى الدول الاشتراكية.

وحاولت الماركسية أن تحمى نفسها بالتعصب وإطلاق الشعارات وادعاء العلمية والتقدمية واتهام المخالفين فى أخلاقهم فهم خونة ورجعيون متعفنون، فأصبح الشيوعى مثلا للجمود والتزمت وضيق الأفق والتبعية فى الرأى والصلافة والغلظة.

سادساً: أدى التأميم الشامل حيثما طبق وفى أى بلد إلى هبوط فى الإنتاج

وإلى كارثة اقتصادية.

وقال خروشوف كلمته الشهيرة «إن البقرة التى يملكها صاحبها تدر من اللبن أكثر من البقرة التى تملكها الدولة».. هادما بذلك كل فلسفة ماركس فى التأميم والملكية الاشتراكية.

وكأن التأميم يجر وراءه اللامبالاة والإهمال والكسل والبيروقراطية وسوء الإنتاج.

وأمام خطر البيروقراطية الذى استشرى فى كل البلاد الاشتراكية راح أنبياء الكرملين يجتمعون وينفضون ويقدحون الأذهان ثم خرجوا علينا بفلسفة الحوافز.

ولكن الحوافز لم تفعل شيئا.. بل كانت نوعا من الرشوة أدت إلى طمع من يأخذ وحقد من لا يأخذ.. ثم إلى مزيد من الصراعات واستمرار فى هبوط الإنتاج.

ورأينا روسيا التى تملك أكبر حقول القمح فى أوكرانيا تطلب القمح من أمريكا وتفتح بلادها للمصانع الأمريكية ولفروع البنوك الأمريكية.

بعد أن نزعوا ملكية المواطن الروسى سمحوا بالملكية والاستثمار لرأس المال الأمريكى.

نهاية أشبه بالنكتة

وقد كان التأميم محكوما عليه بالفشل من البداية.. وكان الفساد فى المبدأ وليس فى التطبيق لأنه مضاد للفطرة.

والحضارة من فكر وفن وصناعة هى فى النهاية ثمرة ملكات أفراد ومواهب وتطلعات أفراد.. وإذا حرمنا تلك الملكات مجالها الحر وسجناها فى ديوان موظفين تعمل فى روتين وآلية بلا طموح انتهت إلى العقم والكسل والبلادة.

ثم إن نظام التأميم يسد كل أبواب الرزق ولا يبقى للناس إلا باب التوظيف بالحكومة وبذلك لا تعود هناك وسيلة لضمان اللقمة سوى النفاق للحاكم

والتملق للرؤساء والانتهازية والشللية والتبليغ والتخابر والتجسس والعمالة، وبذلك يتحول المجتمع تلقائيا إلى غابة من الناس يأكل بعضهم بعضا.

والعامل وقد رأى أمامه أباطرة المال وقياصرة الأرض يعرون عن أملاكهم بكل سهولة ويطردون أصبح يشعر بأن هيبة كل كبير سقطت نهائيا، فهو يتحول بغريزته دون أن يدرى إلى من هو فوقه يحاول أن يسحب منه الكرسى ليقفز مكانه.

والصراع الطبقى بين الفلاح وصاحب الأرض وبين العامل وصاحب العمل وقد وجد فرصته- ينتشر كما تنتشر النار فى الهشيم- يتحول إلى منطق يحكم المجتمع كله، فإذا بكل من هو أدنى ينظر فى تربص إلى كل من هو أعلى فيتمزق المجتمع إلى ملايين يطعن بعضهم بعضا وينقسم الكل إلى جبهات متقاتلة متباغضة، سكاناً وأصحاب مساكن محررين ورؤساء تحرير.. عساكر وضباط.اً. موظفين ومديرين.. خداماً ومخدومين.. كل مرءوس يتحين الفرصة ليطعن رئيسه ويحل محله بحق أو بغير حق.. فإن ما حدث فى القمة قد أعطى المثل للقاعدة وتلقفته الأحقاد لينتشر فى حرب داخلية صامتة تستنزف الموارد لآخر مليم فى مكائد ورشاوى وسرقات واختلاسات لا آخر لها.

يقول تروتسكى وهو أحد أنبياء الاشتراكية:

إن بين شكوى الفرد وطموحه وضعا نفسيا فيه الكثير من كوامن الحقد.. والحقد هو أسهل معاول الصراع الطبقى.

هذا هو كلام تروتسكى، وهو اعتراف صريح بشرعية الحقد عند هؤلاء المخربين وشرعية استخدامه لقلب المجتمع.

وهذا هو ما أشار إليه الرئيس السادات فى كلمته التاريخية حينما قال:[1]

- لقد ترك لى عبدالناصر تركة من الحقد لا أجد لها إلى الآن حلاً.

ثم إن التأميم الذى انتزع المصانع من يد خمسة أو ستة رأسماليين مستغلين

(١) مصطفى محمود: لماذا رفضت الماركسية، دار المعارف بمصر، ١٩٩٤، ص٨ -٢٠.

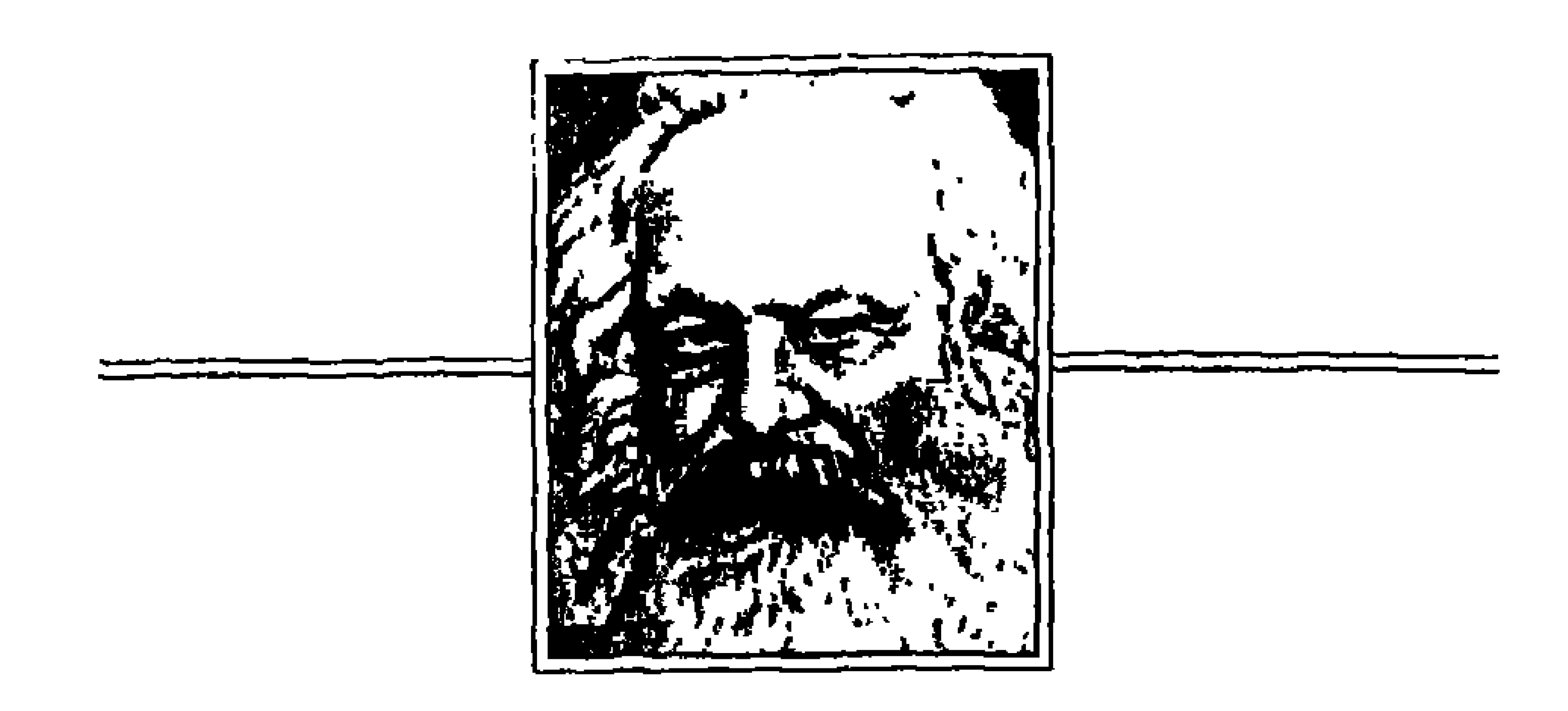
سلمها إلى مائة ألف لص فى المؤسسات والجمعيات التعاونية ينهبونها.

والمنتج الرأسمالى كان على الأقل أستاذاً فى مهنته وكان بدافع مصلحته يتفنن ويبتكر ويبدع ويعطى المستهلك أقصى إجادة ليحصل على أقصى ربح.. أما المائة ألف لص فى المؤسسات والجمعيات التعاونية فلا علم لهم بالحرفة وهم لا يبتكرون ولا يبدعون ولا يعملون ولا يعطون.. وإنما كل همهم هو التسابق على النهب والسلب.. والنتيجة هى الكارثة الاقتصادية التى وقع فيها كل من طبق التأميم على نطاق واسع.

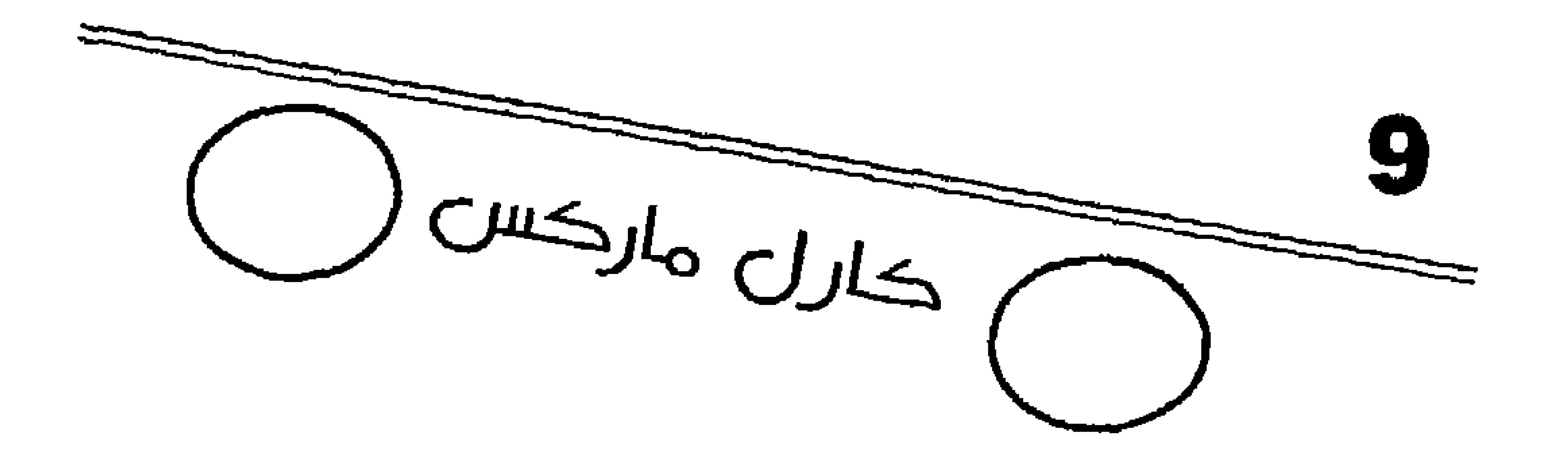
هذه إذن هى الماركسية ولم يكن ما حدث من مظالم فى البلاد الشيوعية سببه عيوب فى التطبيق.. بل كان العيب فى صلب النظرية ذاتها.

وقد انتهت الماركسية من العالم كفكر.

■ ■ ■



مغزى سقوط الماركسية



(١)

يتضمن سقوط الماركسية، فى أواخر الثمانينيات، أكثر من وجه، وينطوى على أكثر من مغزى، وهو يمتد، لكى يغطى العديد من السياقات، بدءاً بالتنظير العقائدى، وانتهاء باحتمالات المستقبل. وسوف تؤشر الصفحات التالية على جوانب فحسب، من الظاهرة، قدر ما يسمح به المجال.

البداية هناك، فى الجذور التنظيرية.. فى العقيدة الماركسية نفسها، فالخطأ يكمن هناك، وكل ما شهدته ساحات الممارسة، والتطبيق، من أخطاء، وعثرات، وانحرافات، وتناقضات، وإحباط، إنما يمثل انعكاساً أميناً ومحتوماً، فى الوقت نفسه، لذلك الخطأ الكبير، فى أساس النظرية.

وأى محاولة لتحجيم الأخطاء، أو تعويمها، أو فك الارتباط بينها وبين الأصل العقدى، إنما هى محاولة خاطئة فى المنهج، كما أنها، قد تعكس نوعاً من التبرير للهزيمة، وحماية ماء الوجه للعقيدة «العلمية!» بحصر الانتكاسة والسقوط، فى دوائر السياسة، أو الاقتصاد.

والشيوعيون أنفسهم، أول المتشبثين بمناورة كهذه، للالتفاف على حقيقة الظاهرة، وبخاصة شيوعيى الذيول، عبر جغرافية العالم الثالث، من المصابين أكثر بالإدمان على الجبن العقلى، الذى سقتهم الماركسية، كئوسها المسكرة، إذا استخدمنا عبارة آرثر كوستلر، المفكر والأديب الشيوعى المرتد.. وقد يتابع هؤلاء وأولئك كثير من المغفلين والمحسوبين على اليسار لسبب أو آخر، والذين يهمهم أن يظل شىء من القدسية للعقيدة وإلا منوا بخسائر فادحة فى قناعاتهم حيناً وفى مصالحهم أكثر الأحيان.

لكن لسان الحال، والمقال معاً، ومجمل المؤشرات، تقود إلى البؤرة التى تلتم

عندها الخيوط كافة، وهى أن الانحراف أو الخطأ تمركز هناك فى العقيدة.. فى جمودها.. فى أحكامها الصارمة.. فى انقفالها.. فى احتكارها الماضى بقوالبها الجاهزة.. فى مصادرتها المستقبل، بنبوءاتها الكاذبة.. فى رؤيتها أحادية الجانب.. فى رفضها الأعمى للدين.. وفى إغفالها الإنسان، وجهلها بتركيبه المعقد، ذى الطبقات.

ورغم ما ادعاه المؤسسون والمنظرون والأتباع، من علمية العقيدة الشيوعية فإن هذا الادعاء لا يعدو أن يكون على حساب العلم والمنهج تفنده وتدحضه حشود من أعمال النقد التى مورست إزاء النظرية وحشود أخرى من الأخطاء والتناقضات والهزائم التى منيت بها التجربة بسبب من عدم قدرتها على التحقق بإدراك مرن لقوانين الحركة التاريخية.. ثم كانت النهاية المحتومة، ذلك السقوط الدراماتيكى الذى بدا إلى حد كبير مفاجأة لكثير من المراقبين بينما هو فى الحقيقة ليس كذلك وإنما هى الأخطاء والتناقضات التى تتسحب خيوطها فى النظرية نفسها، منذ لحظات تشكلها الأولى وكان لابد- فى نهاية الأمر- أن يتمزق النسيج، وتسقط النظرية والتطبيق، لأن القاعدة- فى الأساس- غير «علمية» على الإطلاق!

فى ماديتها الديالكتيكية، ألغت الماركسية الدين من الحساب، وتنكرت لله سبحانه.. وفى ماديتها التاريخية اضطرت إلى البحث عن إله بديل، ودين جديد، فكانت قوانين التبدل المحتوم، فى وسائل الإنتاج وصيغه وعلاقاته هى الدين وكانت الطبقة هى الإله.. وفى تصاميمها الاقتصادية أسرت نفسها فى أفعال وردود أفعال منتصف القرن الماضى.. فلما شبت الممارسات والمعطيات الاقتصادية عن الطوق وشهدت مفرداتها تغيرات جذرية عميقة وانقلابات تحولت بالكثير من المعادلات من النقيض إلى النقيض.

لما حدث هذا وذاك لم يعد بمقدور النشاط الاقتصادى أن يظل على قميصه الضيق العتيق فكان لابد أن يمزقه ويرمى بأوصاله ويستبدل به قميصاً غيره.

إن نظرية ماركس «ورفيقه إنجلز»، أو عقيدته «العلمية»، كما يحب هو وأتباعه أن يطلقوا عليها إنما هى انعكاس بالحق والباطل لمعطيات قرن مضى تم تنفيذها بالقسر فى بدايات قرن بدأ فلما أوشك هذا القرن على انتهاء تبين بقوة الوقائع نفسها استحالة الاستمرار على الاستمداد منها وصياغة الحياة البشرية فى ضوء معاييرها العتيقة إذا ما أريد لهذه الحياة أن تسترجع حقا قدرتها على التوازن والفاعلية فكان هذا الذى كان فى السنوات الأخيرة مما يعرفه الجميع.

■ ■ ■

(٢)

والواقع أن عجز الماركسية، عن ملاءمة الواقع والتطور بالمجتمع البشرى صوب الأحسن أخذ يتضح منذ بدايات التنفيذ الأولى، فى عشرينيات هذا القرن، وما تلاها.. بل منذ الشهور الأولى، التى أعقبت ثورة أكتوبر عام ١٩١٧م ومن أجل ذلك، جرت محاولات متواصلة، للترقيع والتقويم، واستعادة القدرة على الوقوف والسير.. ولقد شملت هذه المحاولات، تغييرات شتى، بعضها كان يتحرك على السطح، وبعضها الآخر توغل إلى الأعماق، وغير وبدل فى شبكة المعطيات العقدية للماركسية، وتم استبدال قطع ووصلات، يصعب حصرها واستعيض عنها بقطع غيار جىء بها من دائرة الرأسمالية حيناً ومن نسيج الحياة اليومية الواقعية حيناً آخر. وكان يوازى هذا سلسلة من التراجعات عن مطالب النظرية كان بعضها ينطوى على تحول جذرى فى الاتجاه عن منطلقه الأساسى.

ولقد بدا هذا واضحاً منذ محاولات لينين- المؤسس- التوفيقية، واستمر فيما بعد، على يد ستالين، وماوتسى تونج، وتيتو، وخروشوف، وأندروبوف، والعديد من المنظرين السوفييت والصينيين، وعقائديى، ما يسمى بالشيوعيات الإقليمية، أو القومية! فى العديد من بلدان أوروبا، والعالم الثالث، لكن ما لبث الوضع فى عهد جورباتشوف، أن تكشف عن استحالة الاستمرار على مداواة الضرس، الذى نخره السوس، ومحاولة حشوه أو تعزيزه بالبلاتين والجسور.. وأنه لابد من قلعه من الجذور، إذا ما أريد للثة أن تستعيد عافيتها، وللإنسان أن يأكل حتى الشبع، دونما منغصات أو آلام.

■ ■ ■

(٣)

ولقد كان خطأ الماركسية القاتل، من بين أخطاء عديدة أخرى، أنها اصطرعت مع الإنسان والتاريخ والخبرة الحضارية «إذا استعملنا عبارة الناقد الإنجليزى المعاصر جون سترايتشى».. لقد أرادت تغيير الفطرة البشرية، وإعادة تركيب الإنسان، تركيباً ميكانيكياً صارما، بأكبر قدر من التسطيح، كما يقول عالما الاجتماع المعاصران تشارلز بيج، وماكيفر.. وأعلنت الحرب على التجارب، والمؤسسات، والقيم الحضارية، التى تشكلت عبر التاريخ، لصالح الإنسان: الدين، العائلة، والأخلاق، والتى تمثل ضرورات، ومرتكزات، أساسية للحياة البشرية.. وكان المنشور، أو البيان الشيوعى المعروف، الذى أصدره ماركس وإنجلز، فى منتصف القرن الماضى، لا يعدو، أن يكون فورة عاطفية أو فكرية فى مجابهة حيثيات الإنسان والتاريخ والحضارة.. وحاول الرجلان، وكل الذى ارتضوا أن يتبعوهما إلباس البيان معطف العقائدية والعلمية والثورية.. إلى آخره، وأن يقفزوا فى الفضاء.. لكن الواقع المنظور، والممارسة البشرية، ما لبثت بعد صراع مرير، وخسائر باهظة على كل الجبهات أن أعلنت انتصارها على التنظير الخاطئ.. وقدرتها على الثبات والديمومة، فى وجه أعاصير التبديل والتحريف.. ووجدت القيادات الماركسية نفسها، تتراجع يوماً بعد يوم، وعلى أكثر من جبهة، إزاء زحف وحصار الضرورات الإنسانية، وتعلن، بين الحين والحين استسلامها المغطى بشعارات التطوير والملاءمة بين أسس العقيدة، ومطالب «الإنسان»!

ولقد كان من عنف الضغوط التى مارستها الزعامات الماركسية، بالقسر والإكراه ضد هذه المطالب والمرتكزات- أن جاء رد الفعل بالعنف نفسه. ففى الثورة البولندية المضادة- مثلاً- أصبح البابا، زعيم الكاثوليكية فى العالم، رمزاً

ومخلصاً ومعشوقاً.. وفى الانتفاضة الشعبية الرومانية، التى أطاحت بالديكتاتور المعروف تشاوتشسكو، كانت صرخات الثائرين، تشق أجواء الفضاء: «قُتل عدوّ المسيح»! وفى جمهوريات آسيا السوفيتية، ذات الأكثريات الإسلامية، أصرت الأجيال الناشئة، رغم سبعين سنة من عمليات غسيل المخ، بالتوجيه العقائدى والفكرى، وبالتلقين التربوى والإعلامى، وبالقسر البوليسى والعسكرى، الذى نفذته قواعد الحزب والبوليس والجيش والشرطة السرية أصرت على التشبث بقيمها وتقاليدها وأصولها الإسلامية فيما حدثتنا عنه بالتوثيق الدقيق هيلين دانكوس الخبيرة الفرنسية فى شئون الاتحاد السوفيتى فى كتابها: «القومية والدولة فى الاتحاد السوفيتى» فأطالت الحديث.

وقبالة الإغراءات، والتهديدات، والضغوط كلها، قدر أحفاد الحضارة والقيم الإسلامية هناك، على الحفاظ على هويتهم، والوقوف إزاء القيادة، التى ما وجدت وسيلة لتدمير قناعاتهم الدينية، إلا استخدمتها.

وتجريد المرأة السوفيتية من أنوثتها، ومساواتها القسرية بالرجل، أخفقت هى الأخرى.. والعائلة عادت، لكى تفرض نفسها فى نسيج الحياة السوفيتية الجديدة.. ونظرية «كأس الماء» التى نادى بها منظرو الماركسية، والتى جعلت من الدافع الجنسى، مجرد نزوة عابرة، يمكن إفراغها بسرعة، كما يشرب العطشان كأساً من الماء، لكى يواصل الإنسان قدرته على الإنتاج، دونما توتر، سقطت هى الأخرى وأعلن لينين بعد سنوات قلائل إلغاءها واستبدال بها منطق الأسرة والإنجاب والطفولة التى تأوى إلى حنان الأمهات وتعرف على وجه اليقين من هم الآباء.

ومنظومة القيم الخلقية، التى قيل إنها- كالدين والعائلة- انعكاس لحالة برجوازية، راحت القيادات السوفيتية، تحرسها، وتعضّ على استمرارها وفاعليتها بالنواجذ وإلا تحول الشعب السوفيتى كله إلى لصوص وقتلة ومرتشين وتعرضت الأنشطة الإنتاجية نفسها للتسيب والتفكك والدمار.

والتقسيمات الطبقية الصارمة، والمفصلة على حجم المعطيات الاجتماعية، فى منتصف القرن الماضى، تهاوت هى الأخرى، وأصبح العمال أنفسهم هم الذين يتولون كبر الثورة ضد الماركسية، كما حدث فى أكثر من بلد شيوعى.. وأصبح الشعب كله، بجنده، ومثقفيه، وعماله، وفلاحيه، هو الذى يخرج إلى الشوارع فيضحى، ويتعرض للإبادة والقتل الجماعى، ثم ما يلبث، أن يفرض كلمته، ويكنس كل الزعماء والمرتزقة، وأرباب المصالح، ممن رأوا فى الشيوعية مطيتهم الملائمة لحماية مصالحهم وضمان مراكزهم المتقدمة فى أجهزة الحزب والدولة ومؤسسات الأمن والمخابرات.

والإنتاجية التى كانت معبود الماركسيين، وإلههم الجديد، التى ضحوا من أجلها بكل ثوابت وضمانات الحياة البشرية، تعرضت لانكسار عجيب، فلم تعد تسمن، أو تطعم من جوع.. وطبيعة الإحصاءات، والأرقام المعلن عنها، أصبحت مثاراً للتندر والسخرية، كذلك الرقم الذى يقول إن ٩٨٪ من مزارع البطاطا فى الاتحاد السوفييتى، كانت تنتج ما تنتجه ٢٪ فقط من مزارع البطاطا فى أمريكا، وكتلك الواقعة التى تقول: إن المجريين، والرومانيين، والبلغار، كانوا يأكلون الدخان والشوفان، من أجل أن يذهب القمح إلى روسيا «الأم»، حيناً، ويصدر حيناً آخر للحصول على العملات الصعبة.

وهذا حق.. فإن هيكليات النظام الماركسى، وقوالبه المتيبسة، كادت تؤتى على أهم ما يهم المجتمعات، التى خضعت للروس، من ضمانات الطعام، وتقتلها من الجوع، وأصبحت هذه بالذات، واحدة من مقاتل النظام الشيوعى التى نفذت منها الولايات المتحدة، زعيمة الإمبريالية العالمية، لكى تفض عرى الشيوعية عروة عروة، بعد أن كانت الشيوعية نفسها، قد خربت بيوتها بأيديها.

■ ■ ■

(٤)

وثمة ما يقال، عن غيوم مظلمة، قد تطلع من الأفق، ويجىء بها المستقبل القريب أو البعيد، بسبب من منطقة الانخفاض الجوى، التى شكلها سقوط الماركسية، والفراغ الذى تركته.. إنها أوروبا الموحدة، التى قد تشهر سلاحها مرة أخرى فى وجه دول العالم الثالث أو الإسلامى المنكود بحرب صليبية ثالثة أو رابعة قد تشن هنا أو هناك، ليس بالضرورة فى صيغة عمل عسكرى وإنما بالعديد من الصيغ الأخرى وبخاصة الاقتصادية التى أصبحت تشكل اليوم واحدة من أخطر القدرات الهجومية فى الصراعات الراهنة.

إن شيئاً من هذا، تحقق فعلاً: (مثلاً سحب المعونات الغربية من دول العالم الثالث، وتقديمها لأوروبا الشرقية.. والتعاطف الملحوظ بين المؤسسة البابوية والثورات الشعبية، ضد الماركسية فى أوروبا.. وحدة ألمانيا الشرقية والغربية.. اللقاءات المتكررة بين الزعامة السوفييتية الجديدة، وساسة أوروبا الغربية، من أجل مزيد من التنسيق، والعمل المشترك.. تبنى دعوة جمهوريات البلطيق الثلاث للانفصال، مقابل الإصار على عدم تشجيع الجمهوريات الإسلامية، لتحقيق الهدف نفسه.. الاتفاق السوفيتى الأمريكى الأوروبى، على تصفية القضية الفلسطينية، تحت مظلة مؤتمر السلام.. إلخ).

وقد يجىء هذا كله، على حساب عالم الإسلام.. بل إن الزعامة السوفيتية الجديدة، بسبب من رغبتها فى التحديث، والتحرر من أشبح الماضى، وبدافع من ضمان وصول الإمداد الغذائى الأمريكى، وبخاصة القمح، وقروض العملات الصعبة، لكى لا يتعرض المواطنون السوفييت للمجاعة، والتفكك أخذت تطل برأسها إلى ما وراء القارة الأوروبية إلى أبعد من السوق المشتركة باتجاه الولايات المتحدة الأمريكية، من أجل مزيد من التعاون والتنسيق، ولن يكون

هذا، مرة أخرى، إلا على حساب عالم الإسلام! (ومن يدرى، فقد يكون تجميد الوضع فى أفغانستان، أو محاولة تجميده، لمنع حركة الجهاد الأفغانى، من تحقيق هدفها النهائى، من بين شروط اللعبة).

ويجب ألا ننسى ها هنا، أن الشيوعية والرأسمالية، إنما هما فرعان لحضارة مادية واحدة، وأنهما يرضعان فى نهاية الأمر من ثدى واحد، وأن سقوط الماركسية، كان أمراً توقعه العديد من المفكرين والمؤرخين (ولنتذكر- على سبيل المثال- توقعات الشهيد سيد قطب رحمه الله، واستنتاجات الكاتب الرومانى كونستانتان جيوروجيو) فليس بمستغرب- إذن- أن يعود الإخوة الأعداء، إلى اللقاء، كرة أخرى، بل ليس من المستغرب، أن يرجع المعسكر الشرقى، وهو مثخن بجراح التطبيقات الماركسية الخائبة، لكى يرتمى فى أحضان أمريكا!

لكن تشاؤماً كهذا، يجب ألا يتجاوز حدوده المعقولة. فإن عالم الإسلام كان مبتلى بالتفوق الغربى، وما ترتب عليه من استعمار، واستلاب، وابتزاز، يوم كان الغربيون- بمن فيهم الروس- ينقسمون على أنفسهم، إلى معسكرين، أو عدة معسكرات، وإن التآمر على عالم الإسلام، وتدمير مقدراته، وابتزاز ثرواته وحجب حقه المشروع بمستقبل حر سعيد كان قد مورس زمن الدولتين العظميين كما سميتا وقتها وقبلهما وبعدهما.. على السواء.. وما لم يتولّ المسلمون أنفسهم، مهمة الدفاع بأنفسهم عن وجودهم ومصالحهم ومصيرهم.. وما لم ينسجوا بأيديهم خيوط حريتهم، وسعادتهم، فإن أحداً فى العالم لن يمد إليهم يداً سواء كان هذا العالم متحداً، أم منقسماً.. فالحرية لا تستجدى وإنما تنتزع انتزاعاً، ورحم الله من قال:

ما حكَّ جلدك مثل ظُفُرِكَ ... فتولَّ أنت جميع أمرِكَ

وكلنا يذكر، على سبيل المثال لا الحصر، أن أكثر من تلاق، تم بين المعسكرين الكبيرين، أيام ما سمى بالحرب الباردة، أو الصراع العقائدى، بين

الاتحاد السوفيتى، والإمبريالية العالمية.. ولقد توجت تلك اللقاءات، بوفاق هلسنكى المعروف فى الستينيات بين روسيا وأمريكا.. وكانت تلك اللقاءات، تستمد حيثياتها من المصالح المشتركة والأرضية الحضارية الواحدة ومن ضعف وتهافت واستخذاء وعمالة دول وقيادات العالم الثالث والإسلامى على وجه الخصوص، والرغبة المشتركة فى اقتسامها، واستنزافها حتى النخاع وتصريفاً للصالح العتيق بالعملات الصعبة واستيراداً للخامات الثمينة، وبخاصة النفط، بسعر التراب، وتصديراً للبضائع الكاسدة، وتحريكاً للثروة، وإيجاداً لمواطئ قدم، فى الصراع الاستراتيجى بين الطرفين.

ولنتساءل، مجرد تساؤل: ما الذى عملته الزعامة السوفيتية، فى حربى ١٩٥٦ و١٩٦٧ مع إسرائيل؟ لقد كان إنذار بولغانين، لدول العدوان تمثيلية استهلاكية ساذجة، مررت علينا، لأن الذى أرغم بريطانيا وفرنسا على الانسحاب هو أمريكا، وليست روسيا.. أمريكا التى غضت الطرف عن انقلاب عام ١٩٥٢م فى مصر، وكانت حتى عام ١٩٥٦م تأمل فيه خيراً، فتحرسه وتحميه.. ثم بعد كم من التنازلات السرية والمعلنة، قدمتها القيادة المصرية لإسرائيل، من أجل أن تنسحب، وينسحب معها الإنجليز والفرنسيون؟

أما فى حرب الـ١٩٦٧م، فإن الزعماء الروس، خدعوا عبدالناصر بإيهامه أن إسرائيل لن تهاجم، وأن عليه هو- فى المقابل- ألا يبدأ الهجوم!.. وفيما بعد، وعبر حرب الاستنزاف، ما الذى قدمته روسيا لمصر، غير الأسلحة الدفاعية الصرفة، وكأنها تحرص، أكثر من أمريكا، على رضا إسرائيل وأمنها؟

وغير هاتين التجربتين المريرتين، عشرات من التجارب، التى أكدت أكثر فأكثر، أن الغربيين مهما اصطرعوا على العقائد، والمصالح، فإنهم يد واحدة على من سواهم، سواء انقسموا إلى دولتين عظميين، أو عشرين دولة متوسطة القوة، كما حدث فى الحربين الأولى والثانية، أو اتحدوا فى إطار أوروبا واحدة، أو عالم وفاق واحد، أو نظام عالمى جديد.

وثمة من المتشائمين، من يرى، أن فشل النظم الرأسمالية والتوفيقية، التى ستلجأ إليها الدول، والشعوب المتحررة من الشيوعية، قد يؤدى إلى تزايد الفقر والجوع، وتفاقم مشاكل البطالة. كما أن عجز الدول الغنية- لسبب أو آخر- عن تلبية حاجات هذه الشعوب، فى لحظات التشكل الجديد، والانعطاف المصيرى الحاسم، قد يقود- بمعية العوامل الأخرى- إلى تمركز الثروة، وعودة الطبقية كرة أخرى، وربما سيتمخض ذلك عن الدعوة للعودة ثانية إلى الشيوعية التى قد تجد مبررات أقوى، من ذى قبل، لكى تستعيد نفوذها، مع شىء من عمليات التعديل والتجميل المناسبين، للعصر الجديد!

أما أن النظم الرأسمالية والتوفيقية، قد تفشل فى ملء الفراغ، فهذا حق، لأن هذه النظم لم تتسلم- بعد- شرعية بقائها وديمومتها فى بلادها نفسها، فكيف بها فى بلاد تتفاقم فيها المشاكل والتراكمات؟ وأما أن الدول الغربية، قد تعجز عن تلبية حاجات الشعوب المذكورة، أو الاستمرار فى دعمها بالمال والغذاء والمنتجات الصناعية، فهذا حق كذلك، لأن عطاءً كهذا، له حد يقف عنده، وهو ليس حراً سائباً، وإنما تحكمه جملة من الضوابط والشروط، التى قد لا تسمح بالاستمرار عليه.

وأما أن ذلك الإخفاق، وهذا العجز، قد يعيدان الشيوعية ثانية، بثياب جديدة فذلك أمر بعيد، ليس من قبيل التحليل النظرى الصرف، الذى يطرح المقدمات ويستخلص النتائج، وإنما فى ضوء قوة الوقائع المنظورة نفسها.. فها قد مضى أكثر من عامين، على تحرر تلك الشعوب، وعلى جوعها ومعاناتها كذلك، وهى تطالب أكثر فأكثر، بالتخلص كلية من بقايا الماركسية، فى حياتها الجديدة.. وها قد مضى أكثر من عامين على الجوع والمعاناة، والجماهير ذات القول والفصل، تخرج إلى الشوارع، وتضحى، وتتعرض للقتل، من أجل مزيد من التحرر، من كابوس، ما كانت تصدق، أنها خارجة من قبضته.

وليس فشل الرأسمالية، والتوفيقية، وعجز الدعم الغربى، بقادر على أن يقنع تلك الشعوب، بأن تتنازل عن حريتها كرة أخرى، للصنميات والطواغيت.

إن الخبز يمكن أن يأتى.. وإن النظم البديلة، يمكن أن تُبتكر، أو تعاد صياغتها، إلى اليوم الذى تصير فيه قادرة على تلبية المطلوب.. لكن شيئاً واحداً لا يمكن أن يجىء: عودة الشيوعية مرة أخرى، بعد ثلاثة أرباع القرن، من الجوع والقسر معاً.. وبعد سيول غزيرة من الدماء.. وعشرات الألوف من الضحايا. وإنهم ليعرفون جيداً، أن الشيوعية، إذا عادت، فإنها لن تطعمهم من جوع، وهى- إلى ذلك- سترجع كرة أخرى إلى القسر، الذى لم يعد يطيقه الإنسان، والجماعات والشعب.

■ ■ ■

(٥)

وسقوط الماركسية، يؤكد مصداقية الدين- عموماً- والإسلام بوجه خاص، وضرورته للحياة البشرية، وقدرته على الديمومة، والاستجابة والعطاء، إلى أن يرث الله الأرض، ومن عليها.. على العكس تماماً مما تنبأ به ماركس، ورفيقه إنجلز، وبعيداً عن ربطهما الذى لا يقوم على أى أساس علمى، أو تاريخى، بين المعطى الدينى، والمصالح الطبقية. وهذا السقوط، يجىء فى أعقاب تهافت العديد من الفلسفات، والأيديولوجيات الوضعية، كان آخرها تلك الضربة القاضية التى تلقتها «الوجودية» على يد مؤسسها نفسه: جان بول سارتر، والذى صرح لخليلته سيمون دوبوفوار، قبيل وفاته: بأنه يرفضها جملة وتفصيلاً، وأنه ليس ثمة من حقيقة باقية إلا الله.

إن هذا السقوط، فضلاً على كل ما ينطوى عليه، من معان ودلالات، ليضرب عرض الحائط، بكل نبوءات واستنتاجات الماركسيين، والوضعيين عموماً، أولئك الذى توهموا «الدين» مجرد حالة تاريخية عابرة، وأنه سيجىء اليوم الذى يتخلى فيه عن مهمته، ويخلى فيه المكان للعقل البشرى، يخطط، ويبرمج، ويرسم المذاهب والأيديولوجيات، وينفرد بمصير الإنسان.. بل إن يوماً كهذا قد جاء فعلاً.

إن سقوط الماركسية، بقدر ما يؤكد هذا كله، يطرح- فى المقابل- تحدياً خطيراً أمام الإسلاميين، ربما يكون أشد من تحدى الإلحاد الماركسى نفسه، زمن انتشاره وهيمنته. ذلك أن الأمر يتطلب تحركاً سريعاً لملء الفراغ، وتأكيد القيم الإسلامية، وتعزيزها، والمضى بالمشروع الإسلامى- الحضارى، فى حركة انتشار واسعة، من المحلى إلى العالمى، ومن الآنى، إلى المستقبل.. وكسر حواجز الجغرافيا، وعبور أنماط الحصار المذهبى كلها، من أجل الوصول إلى الإنسان فى كل مكان، والحديد- بعد- على أشد ما يكون سخونة، والطرق عليه، قد

يعيد صياغته، بيسر وسهولة، لكى يتشكل، وفق مطالب الإنسان.. إنه زمن التقدم للعالم كله، بالرؤية أو الحل الإسلامى، إزاء كل مفردة عجزت الماركسية، عن التعامل معها بنجاح.

والهروب عن مجابهة التحدى، سيؤتى أكله السيئ مرتين، ويقود الإسلاميين إلى خسارتين، لا خسارة واحدة، أولاهما: تفويت الفرصة المواتية لملء الفراغ، الذى تركته الماركسية، وسائر الوضعيات، فى ضمير الإنسان وعقله وروحه، وفى نسيج حياته الاجتماعية وتطلعاته صوب المصير. وثانيتهما: منح الفرصة نفسها للمحاولات الدينية المحرفة، وبخاصة النصرانية، كى تتقدم بالمطلوب، ولسوف يكون عجزها المؤكد، عن الاستجابة لمطالب الإنسان، فرصة جديدة للوضعية والإلحاد.. فى صراع المد والجزر، بين الكفر والإيمان، وهو أمر ليس بمستغرب على سلوكيات الغربيين، الذين طالما تأرجحوا، عبر تاريخهم الطويل، بين الأفعال وردودها، بغض النظر عن مقدار الصدق والاستقامة، والصواب فى نسيج تلك الأفعال، أو ردودها على السواء.

إنه زمن التأكيد على واقعية الإسلام، وهندسته المعجزة، ووسطيته، وإيجابيته، وقدرته المرنة على مجابهة كل المعضلات والحالات، بالحجم المطلوب نفسه.. من التواصل المكثف، المدروس، مع الحيارى والضائعين فى كل مكان.. مع الباحثين عن طريق الخلاص فى أقطار العالم الأربعة.(١)

وكما خرج أجدادنا إلى العالم، يوم أن تلقوا الضوء والإشارة، لكى يخرجوا العالم من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان، إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد، إلى عبادة الله وحده.. فإن على الأحفاد، أن يخرجوا كرة أخرى إلى العالم، بالصيغ والأساليب الموازية لمطالب ومعادلات العصر الذى نعيشه.. لكى يقولوا للإنسان: هذا هو الطريق: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣٠).

---

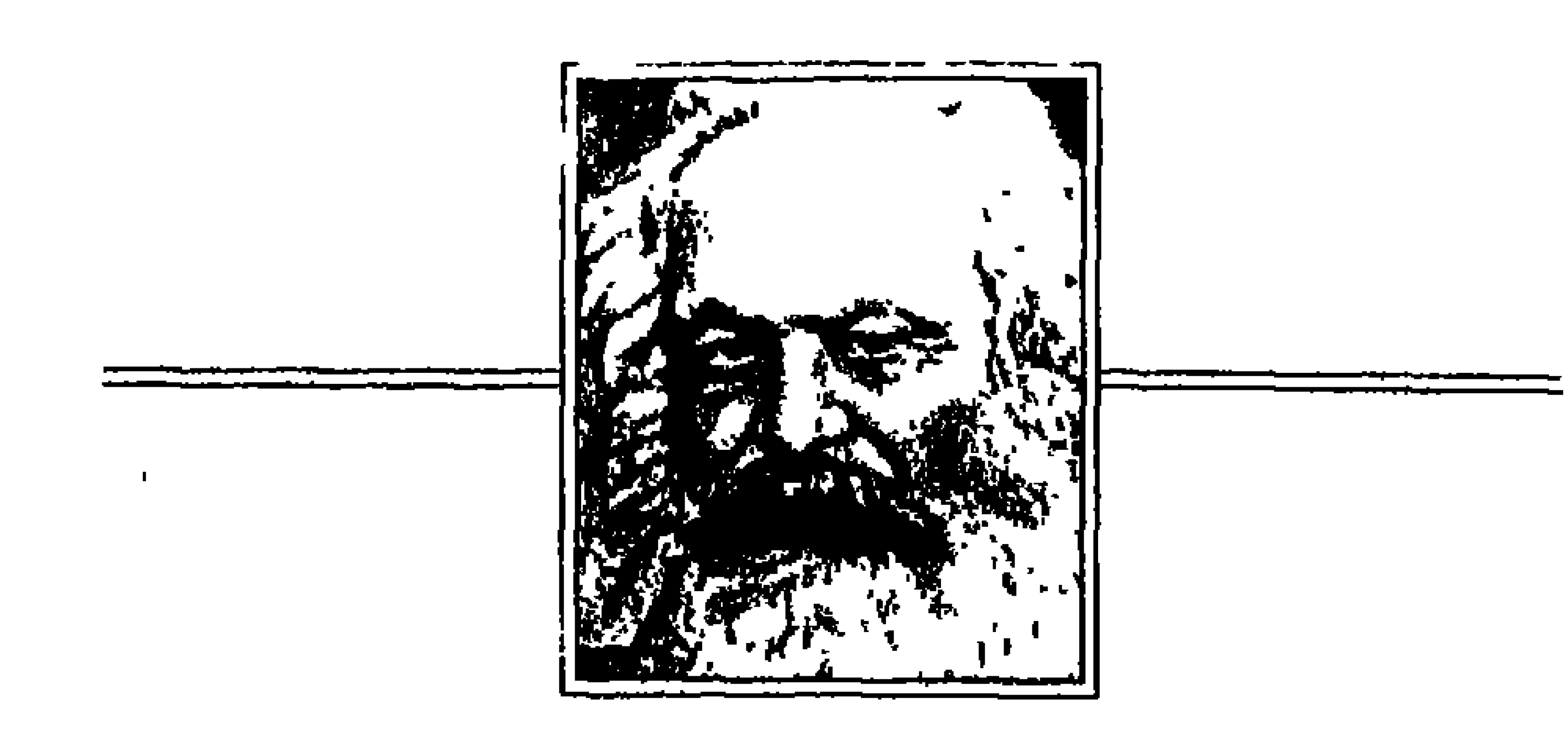
(١) عماد الدين خليل: رؤية إسلامية فى قضايا معاصرة، كتاب الأمة، العدد (٤٥)، السنة الخامسة عشرة، ١٩٩٥.

وفاته

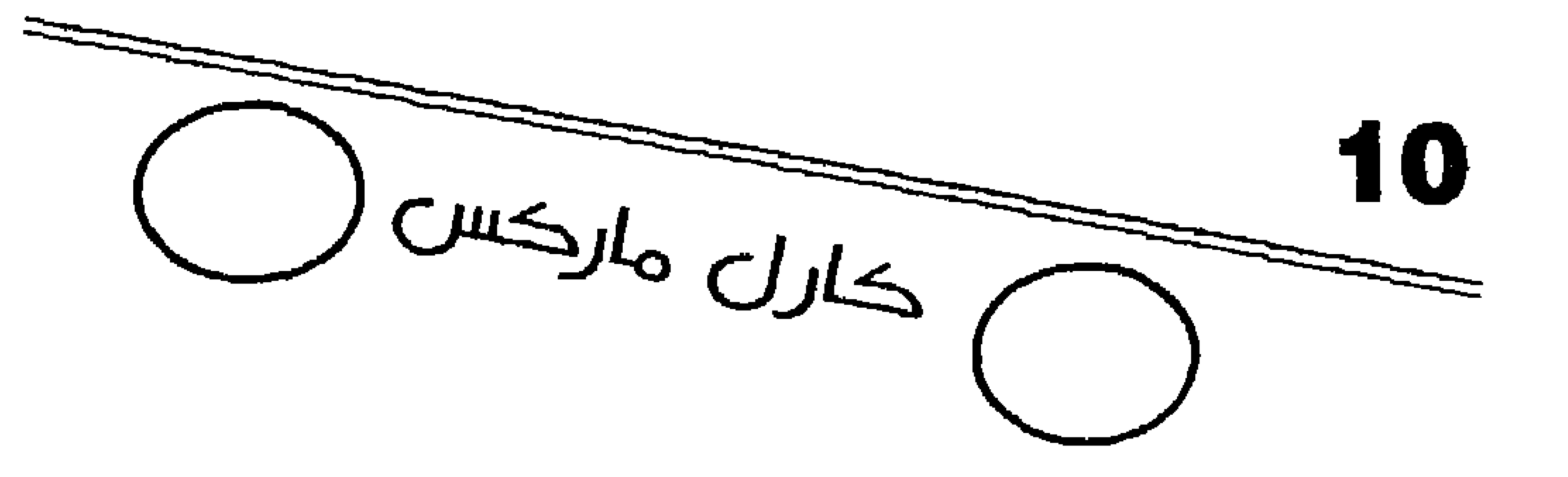
لقد عاش كارل ماركس خمسة وستين عاماً عانى فيها من الفقر والبؤس والمرض كأشد ما يكونون، ولقد رأى وهو بكامل صحته أول جزء من كتابه «رأس المال» بعد طبعه، ولكن سرعان ما وهن القلم فى يده قبل إرساله المجلد الثانى والثالث إلى المطبعة وفى السنوات العشر التي سبقت وفاته عانى أشد المعاناة من خراجات ودمامل هاجمت جسمه كله وفى الثلاث سنوات الأخيرة زاده المرض بؤساً بأن لازمه صداع نصفى.

وفى نفس الحين عانت زوجته التى كانت ترقد فى الغرفة المجاورة من سكرات السرطان.

■ ■ ■



كارل ماركس في الميزان



لابد قبل ختام الدراسة من وضع حياة كارل ماركس فى الميزان كى نقيّم شخصيته، فإن كانت شخصية متزنة مخلصة مضحية فيحتمل أن تنتج فكراً سليماً صائباً، أما إذا كانت شخصية معقدة أنانية مشوشة فإنها لا تنتج إلا فكراً متزمتاً حاقداً. فإن الإناء لينضح بما فيه.

كارل ماركس- ألمانى الجنسية ولد عام ١٨١٨ ميلادية توفى ١٨٨٧ وهو ينحدر من أبوين يهوديين ينتميان إلى الربانيين- الحاخامات- تزوج من جيف مون فستالين. هاجر إلى باريس عام ١٨٤٤ والتقى فريدريك إنجلز، وألفا معاً- العائلة المقدسة والمثالية الألمانية- ثم طردا من باريس فرحلا إلى بروكسل، وهناك ألفا معاً- البيان الشيوعى- الدى يحرض العمال على الثورة. ثم هاجر إلى إنجلترا وكتب فيها عدة مؤلفات منها- رأس المال- الذى أكمل إنجلز إصداره بعد وفاته.

وصفه تلميذه الزوهل بقوله: كان نموذجاً فيما كان يعانيه، من تأثير سوء الهضم، والانتفاخ، وهياج الصفراء. وكان موسوساً يغلو كجميع الموسوسين فى الشعور بمتاعبه الجسدية.

ومن الأسباب التى أثرت فى شخصه، ونمت الحقد فى قلبه وجوده فى المجتمع الألمانى الذى ينظر إلى الملة اليهودية- فى ذلك الوقت- على أنها حقار ووصمة عار. يقول عنه ليوبولد شوارزز تبلد فى كتابه البروسى الأحمر: إنه شخص شعث للغاية. سيئ التصرف فى أعماله. يجرى فى معيشته على نهج المشردين فى المشتغلين بالمطالب الفكرية. ويندر أن يستحم أو يمشط شعره أو يغيّر ملابسه الداخلية، يشرب ويحوم أيامه على غير هدى ويغير عمل.

قال عنه باكونين: إنه زعيم من زعماء الفوضوية، يحب نفسه أضعاف حبه لأصدقائه ومريديه، وما من صداقة تصمد لحظة إذا مسته فى غروره وكبريائه. والأغرب من ذلك أنه يغفر الإساءة إلى دعوته الفلسفية، ولا يغفر أبداً أصغر الإساءات إلى شخصه. ولابد لك أن تعبده وتتخذه وثناً إذا أردت أن

تظفر بمودته.

ويقول عنه كول فى تاريخ الفكر الاشتراكى: إن ماركس بعد انفصاله عن الهيجيليين لم يكن من أصحاب النظريات الأخلاقية ولا الاجتماعية.

انتسب إلى الماسونية مع رفيقه إنجلز وبلغا الدرجة الحادية والثلاثين فى المحفل الماسونى الإنجليزى.

توفيت زوجة صديقه إنجلز فلم يهتم بمواساته وتعزيته فكتب إليه يقول: من البديهة أنك سترى ما أنا فيه من الحزن وما أنت عليه من جمود الطبع.

إن أصحابى جميعاً ومنهم المخالفون قد أبدوا لى من العطف والعزاء فوق ما كنت انتظر. أما أنت فقد لاح لك أنها فرصة لإظهار سموك بالتعالى عن الحزن وجمود العاطفة. والأغرب من هذا أنه لما مات أبوه فى برلين لم يكلف نفسه مشقة الانتقال إليها ليواسى أمه وأخواته، ولم يشغله شاغل غير طلب الميراث والجور على حصة أمه وأخواته.

قال عنه أبوه هنزيك ماركس: إن الأنانية غالبة عليه، وإنها وصمة أو لعنة على صفحة نفسه.

ترى هل تنتج هذه الشخصية الأنانية المعقدة ما فيه خير الإنسانية وسعادة البشرية؟ اللهم لا.

■ ■ ■

المصادر والمراجع

١- مصطفى كمال فايد: الثورات الثلاث الشيوعية- الفاشية- النازية، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٤٥.

٢- وحيد الدين خان: سقوط الماركسية، ترجمة: ظفر الإسلام خان، رابطة الجامعات الإسلامية، الطبعة العربية الأولى، ١٩٨٧.

٣- على أدهم: المذاهب السياسية المعاصرة، اقرأ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر.

٤- ى. ستيبانوفا: كارس ماركس، ترجمة: إسماعيل المهدوى، مطبعة الدار المصرية، ١٩٥٧.

٥- محمد الحسن: المذاهب والأفكار المعاصرة فى التصور الإسلامى، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية، طنطا- مصر، ١٩٩٨.

٦- عباس محمود العقاد، أفيون الشعوب- المذاهب الهدامة، ط٥، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٥.

٧- رتشارد كتشام: هذه هى الشيوعية، ترجمة: عزت فهيم، دار الكتاب المصرى، القاهرة.

٨- خالد شهاب: رجال غيروا العالم، الصافى للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٨.

٩- محمد رشاد عبدالعزيز دهمش: الفكر الماركسى فى ميزان الإسلام، مطبعة الفجر الجديد، القاهرة، ١٩٨٢.

١٠- چوزيف. أ. شومبيتر: عشرة من أئمة الاقتصاد من ماركس إلى كينز،

ترجمة: د.حسين عمر، مراجعة: د.عبدالعزيز مرعى، مكتبة الشرق، القاهرة، بدون تاريخ.

١١- الندوة العالمية للشباب الإسلامى، الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٩٨٩.

١٢- عماد الدين خليل: رؤية إسلامية فى قضايا معاصرة، كتاب الأمة، العدد (٤٥)، السنة الخامسة عشرة، ١٩٩٥.

١٣- لبيب السعيد: الشيوعية والإسلام- بحث موضوعى، مطبعة المعرفة، القاهرة، ١٩٦١.

١٤- على أدهم: حقيقة الشيوعية، المكتب المصرى الحديث، بدون تاريخ.

١٥- مصطفى محمود: لماذا رفضت الماركسية؟، دار المعارف، ١٩٩٤.

١٦- مصطفى محمود: الماركسية والإسلام، دار المعارف بمصر، ١٩٧٥.

١٧- أنيس منصور، الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، الزهراء للإعلام العربى، القاهرة، ١٩٨٦.

١٨- عباس محمود العقاد: الشيوعية والإنسانية.

١٩- جورج بوليتزر وآخرون: أصول الفلسفة الماركسية.

٢٠- محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة.

- مصادر ومراجع أخرى ذكرت بهامش الكتاب.

- مواقع عربية وأجنبية على شبكة الإنترنت الدولية.

فهرس المحتويات

مقدمـة 5

روسيا القيصرية 9

ميلاده ونشأته 19

الأفكار التى تأثر بها ماركس 23

فلسفته 25

الفلسفة المادية 32

المادية الجدلية 34

المادية التاريخية 41

الحتمية التاريخية 46

المساواة فى الأجور ونظرية فضل القيمة 50

الماركسية والتملك 53

الماركسية والدين 59

موقف الماركسية من الإسلام 65

الماركسية والأخلاق 70

الماركسية والأسرة 77

الماركسية والحرية 83

الماركسية واليهودية الصهيونية 85

الشيوعية 90

التأسيس وأبرز الشخصيات 90

الشيوعية والصهيونية 97

إخفاق الماركسية نظرياً 103

فشل الماركسية عملياً 113

تنبوءات كارل ماركس الخاطئـــة 123

مغزى سقوط الماركسية 133

وفاتـــه 149

كارل ماركوس فى الميزان 151

المصادر والمراجع 155

كارل ماركس فيلسوف ألمانى يهودى الأصل، نشأ فى مجتمع ينظر إلى الملة اليهودية- فى ذلك الوقت- على أنها وصمة عار. فشعر بالحقد والأنانية من جراء ذلك.

ويقول عنه والده: (إن الأنانية غالبة عليه، وإنها وصمة عار أو لعنة على صفحة نفسه). وهو سياسى وصحفى ومنظر اجتماعى، قام بتأليف العديد من المؤلفات إلا أن نظريته المتعلقة بالرأسمالية، وتعارضها مع مبدأ أجور العمال هو ما أكسبه شهرة عالمية، ولذلك يعد مؤسس الفلسفة الماركسية، ويعتبر مع صديقه فريدريك إنجلز المنظرين الرسميين الأساسيين للفكر الشيوعى.

اعتمد ماركس فى استنباط نظريته على مراحل منتقاة من التاريخ بما يوافق هواه، ويهمل ما يناقض فكره.. ومن ثم وقع فى التناقض، وأخطأ فى فكرته حول التفسير المادى للتاريخ.. فلا يمكن اختزال الحياة بالعامل الاقتصادى فقط، ولهذا أيضاً أخطأ فى جميع تنبؤاته المتعلقة بالطبقة العاملة، والطبقة المتوسطة، ونظريته عن فائض القيمة.. إلخ.

وحاولت الماركسية أن تحمى نفسها بالتعصب وإطلاق الشعارات وادعاء العلمية والتقدمية !! ونتيجة لذلك سقطت فكراً وتطبيقاً لأنها تخالف منطق الفطرة والعلم والدين، وبعد ذلك.. ترى هل تنتج هذه الشخصية الأنانية المعقدة ما فيه خير الإنسانية وسعادة البشرية؟ اللهم لا..



